رفات الشقاء

بطاقة الكتاب:

اسم الكتاب: رفات الشقاء.
اسم المؤلف:إسلام محمد أحمد أبوفرحة.
نوع الكتاب: رواية.
عدد الصفحـات: ١٨٣ صفحة
المقاس: 14x20
رقم إيداع: ٢٠٢١/١٣٣٤٤م
الترقيم الدولي: 978-977-6736-83-2
الطبعة: الأولى، ٢٠٢١م

رئيس مجلس الإدارة

مها المقداد

للتواصل والطلب من داخل أو خارج مصر:

00201033966291-00201129195867

الغلاف والتنسيق الداخلي والمراجعة

فريق دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

أقر المؤلف بأنه وحده صـــاحب الحقوق الفكرية للكتاب، وأنه يضـــمن للناشـــر عدم التعرض من الغير بخصـوص الملكية الفكرية, كما صـرح أن هذا الكتاب ليس في مضـمونه ما يمنعه القانون، وأن الآراء والأفكار التي يتضـمنها محتوى الكتاب تعبر عن فكر المؤلف فقط ولا يعبر عن رأى الناشـر، ولا يوجد داخل الكتاب نقل أو استعارة بما قد يعرّض الناشر للمسؤولية القانونية.

رفات الشفاء

للكاتب

د. إسلام محمد أحمد أبو فرحة

فريق العمل

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع

تصميم غلاف : أمل النجار

مراجعة : إسلام النجار

اخراج فني "تنسيق": أمل النجار

دار المصرية السودانية الإماراتية للنشر والتوزيع-مها المقداد

+201289024055

Mahaelmukdad@gmail.com

الفصل الأول

أحلام بلا أمل

في أعماق الظلمات، ظلمات اليأس والخوف. ظلمات بعضها فوق بعض. شيء ما يشدني إلى تلك الأعماق حيث الظلام الدامس. حيث الذهاب بلا عودة. طريق الموت، طريق العذاب، طريق الشجن، لك أن تصف طريقي بأحد هذه الطرق ولن تخطئ قلب الحقيقة. ليس من شيمي أن أصرخ بمكنون صدري ولا بعتوّ كياني. ولكن هل من وقفة؟ هل من صدفة؟ أم أقول هل من رجاء؟

لا داعي أن أعرفكم بنفسي، فأنا لا أحد. لست هذا الرجل قوي البنية، وسيم الملامح، ولا المفكر المبدع ذو الرؤى الثاقبة.

عشت حياتي كلها أنظر إلى الأفضل، بكل الأمل والطموح لرؤية عالم أنقى. هذه مجرد أحلام، ولك أن تقول هلاوس لعقل مريض مثل عقلي. كيف أجرؤ أن أحلم؟ فمثلي يجب أن يكون في دوامة لا تنتهي، قلبها العمل ثم العمل بلا طموح. حياتي انتهت قبلما تبدأ وكياني تحلل قبلما يحيا. أعيش في دنيا مفادها الصمت والسكوت على خوائها من المباهج وتعابير السعادة.

قررت أن أتمرد على حياتي تلك التي تغلغلت في نخاع عظامي وجعلتني بلا كيان، أسير فيها بلا خطوات وكأني أسبح في بحورها الجارفة، قررت أن أنتهي من تلكم الحياة الجوفاء فوقفت على جسر الأحبة ليكون لي جسر البداية

وجسر النهاية، هذا الجسر الذي تلتقي فيه القلوب وتجتمع فيه الأفئدة على بدايات العشق وأنغام الحنين، وقفت وأمامي البحر السرمدي يناديني أن اقترب فأنا هو موطنك وأعماقي هي موئلك، نظرت إلى الأفق النظرة الأخيرة وأستنشق آخر النسمات التي وجدتها عليلة. احتضنت الماء الذي اندفع إلى جوفي وتسرب إلى داخلي، اندفعت بقوة إيماني بنهاية المطاف إلى جوف الظلام الأدهم، مستسلما لمصيري المحتوم الذي اخترته، ألا أعود أبدا. فينتهي كل شيء.

دون المزيد من المقدمات اسمي "علام"، أبلغ من العمر إحدى وثلاثون عاما، أعيش بمفردي بلا أب أو أم أو زوجة تشاركني شطف العيش، أعمل مدرسا للغة العربية حيث الأصالة وروعة الكلمات. أنا عاشق لهذه اللغة ومولع بالكتابة وقرض الشعر. طلابي يلقبونني بالأخطل لما لي من باع بالنقد وحسن البلاغة.

حياتي بكل بساطتها لا تنطوي على شيء من الشغف إلا باللغة العربية. حاولت أن أرتبط بأكثر من عروس ولكني لم أفلح في أن أكون الرجل الذي يتمنونه، لذا أصبحت كلمات كالعشق والحب والغرام خارجة عن قاموسي، أغلقت على نفسي أبواب الوحدة وسرت على دروب النسيان، حتى المرأة الوحيدة التي أحببتها، أغرقت كل مراكب نجاة هذا الحب، وجاهدت حتى أنسى كل شيء عنها، ابتسامتها ورقتها ولطفها وودّها، فأنا لا أستحقها. أتذكر دموعها التي سقت وجنتيها عندما قلت لها إنها ليست لي، بدت أنها لم تصدق كلماتي وحتى عبراتي التي حبستها بين جفوني، أردت أن أضمها بين ذراعي وأواسيها ولكن سبق السيف العذل، لقد تركتني وركضت بعيدا صارخة:

- لا أمل فيك ولا رجاء.

وبدوري لم أحرك ساكنا ولم أنبس ببنت شفة، لقد كانت النهاية التي أردتها وسعيت إليها وها أنا أتحملها.

يا لها من لحظات أود أن تمحى من ذاكرتي. فمثلي ليس له أن يحِب ويُحَب.فالحب أعمى وأنا أردت أن أكون بصيرا.

داخل غرفتي الوحيدة المتواضعة أقف أمام المرآة أضع اللمسات الأخيرة قبل أن أذهب إلى العمل، إلى مدرسة "الرفعة الثانوية" حيث أقوم بتدريس المراهقين معنى أن يكونوا قادرين على البوح بما يجيش في صدورهم، أعلمهم أن لغتنا العربية هي وسيلتهم المثلى لرسم لوحة بلاغية فائقة الدقة لا مثيل لها بين لغات العالم أجمع.

ملابسي ليست بالمهندمة وشعري الأشعث هما ما رأيته في المرآة القديمة، محاولاتي لتمشيط شعري وترتيب ملابسي باءت بالفشل، فلم أراعي، وحملت حقيبتي التي تحوي قلمي وكراساتي وأدبي وأشعاري وانطلقت إلى المدرسة. أستقل الحافلة التي تقف أمامي في موعدها، الساعة السادسة والنصف صباحا، وأحيّي سائقها "رجائي". أعرفه منذ خمس سنوات حينما أصبح سائق الحافلة ٥٠٤ بعد العم "قاسم" رحمة الله عليه. "رجائي" شاب مهذب في الثلاثينيات من عمره، ربما يكبرني بعام أو اثنين، هو ابن إحدى القرى المجاورة ومتزوج ببنت خاله ولم ينجب بعد، على الرغم من أنه متزوج منذ سنتين، ولكن لم يحن الأوان بعد أن يُرزق بالولد أو البنت. لا يبدي امتعاضا ولا اعتراضا على قدر الله و لكن يظهر الحزن جليا على وجهه.

- صبحك الله بالخير أستاذ "علام"، كيف حالك اليوم؟

يقولها "رجائي" بوجهه البشوش الذي اعتدت عليه وأنا أخرج محفظتي من جيبي ومنها ثمن أجرة الحافلة. فقمت بالرد عليه قائلاً وأنا أعطيه المال:

ـ في خير حال والحمد لله يا "رجائي". هل ذهبت إلى الطبيب كما كنت تقول بالأمس؟

ـ نعم لقد فعلت وأخبرني أنه سيبذل كل ما في وسعه والأمل كبير.

ـ هذه أخبار حسنة، أسأل الله أن يرزقك بمن يقر به عينك.

ـ يا رب يا أستاذ "علام".

أنتقل إلى كرسي خاو فأجلس عليه وبجواري امرأة عجوز، فتنظر إليّ نظرة تصاحبها ابتسامة رقيقة، وأبادلها التحية بإيماءة من رأسي. من النافذة أرى المشاة والسيارات وكأنهم مثقلون بأعباء الحياة، فقلما تجد الابتسامة على وجه أحدهم أو تعابير السعادة. الشوارع قد تلونت باللون الرمادي راسمة لوحة كئيبة باهتة الملامح، أو هكذا أنا أراها. أرحت رأسي للخلف وأغمضت عيناي راجيا أن تنتهي هذه الرحلة دون مزيد من المنغصات.

ـ هل أنت بخير يا بني؟

قالتها المرأة التي بجواري، فنظرت إليها متعجبا كونها أدرَكَت أني لست في أفضل أحوالي. شعرت بنظراتها التي تنساب إلى أعماقي ووجداني كاشفة كل ما تخفيه نفسي عن الآخرين. فقلت مبتسمًا:

ـ أنا في خير حال يا أماه.

تقول وهي لا تصدقني كما بدا على ملامحها:

- لا تحزن يا ولدي فقلما يجود الزمان بالسعادة دوما. فما هي إلا لحظات سعادة وأخرى حزن. ولكن الكيّس هو من يدرك حقيقة الحياة كونها مزيج من هذا وذاك. فالحزن سيمر ويحل محله الحبور، قد يكون ذلك بعد سويعات أو أيام أو أشهر أو حتى سنين. فالصبر، كما قالوا قديما، مفتاح الفرج.

كلماتها بعثت الأمل في قلبي وأثلجت صدري، لقد كنت أحتاج لمثل هذه الطاقة الإيجابية. فابتسمت لها شاكرا ولكن الكلمات غصت حلقي فلم أستطع النطق. حزني ليس مجرد كلمات بل هو جرح عميق لا يندمل. من الصعب أن تعيش بلا هدف ولا رؤى، أن تكون مجرد طابة يركلها شخص إلى آخر وقد نزعت منها الإرادة لكي تصرخ وتقول لا.

وأخيرا استطعت أن أنطق قائلاً بصوت متحشرج:

- وما أدراك يا أماه أني حزين؟ ربما ما أعاينه هو مزيج من القلق والتعب مثل كل الناس.

- يا ولدي لقد بلغت من الكبر ما يجعلني أرى ما يدور في نفسك دون أن تنطق بشيء. هون عليها ولا تحملها ما لا طاقة لها به، وارضى بنصيبك وقسمك تكن أسعد الناس. ما تراه الآن في هو جسد به مرض عضال لا شفاء منه ولا دواء، وبالرغم من ذلك صابرة، مبتسمة ومحتسبة للأجر عند رب العباد. فلا تعجل ولا تتسرع فإن بعد العسر يسر.

علمت من حسن منطقها وصدق تعابير وجهها أنها على حق، وأني أحتاج إلى أن أعيد النظر إلى جوانب حياتي التي أصبحت كالخرقة البالية إذ أهملتها. فقلت لها بحزن:

ـ شفاك الله وعافاك يا أماه، أطال الله عمركِ. سأعمل بنصيحتك.

ترد عليّ بابتسامتها الساحرة قائلة:

ـ أشكرك يا ولدي.

وفجأة تتوقف الحافلة ونندفع جميعنا للأمام، فمنا من اصطدم بالكرسي أمامه، ومنا من سقط عن كرسيه، أما المرأة بجواري فكانت الصدمة قوية، فألقت بها بعيدا لتصاب بشدة وتخرج الدماء من رأسها بغزارة. أما أنا فلم تكن إصابتي بالغة ولكني شعرت بدوار يميد الأرض أسفل قدمي. فلم أفق إلا بعد عدة دقائق وقد استوعبت ما يحدث حولي. بدأ الركاب ينهضون من سقطتهم، ووجدت زجاج الحافلة الأمامي قد تكسر و"رجائي" قد أراح رأسه على المقود، لا أعلم إن كان أصيب أم لا، والمرأة العجوز استلقت أرضا والدماء تنسكب من رأسها انسكابا. قمت من مكاني لأتفقدها حيث بدت قد فارقتنا، فهي فاقدة للنطق والحركة. أربت عليها قائلاً:

ـ أماه.. يا أمي.

ولكنها لا تستجيب. اقترب بعض الركاب منا، تقدم ليفحصها أحدهم ويمسك بيدها، ليقيس نبض قلبها كما يبدو، والكل مسلط أنظاره على وجهه،

ـ لقد ماتت!

هكذا قال، فقاموا بمواساتي وهم يعتقدون أنها أمي بالفعل. سبحان الله، كانت بجواري منذ دقائق معدودة والآن هي في جوار الله. رحمك الله أيتها السيدة الحكيمة، بوجودك شعرت بأن أمي قد بعثها الله لتوقظني من غفلتي ومن يأسي وقنوطي. رحمك الله يا أمي رحمة واسعة.

قبلت رأس المرأة وقد غلبتني دموعي فلم أعد أقدر على منعها، فانسكبت على وجهي بغزارة. دقائق مرت كالساعات حتى أتت سيارة الإسعاف لتعالج المصابين. "رجائي" قد أصيب إصابة بالغة وحملوه المسعفون على المحفة. أما المرأة فاقترب منها أحد المسعفين ونظر إليها ثم نظر إلي وأنا لا أتوقف عن البكاء. يضع المسعف قماشة عليها لتغطي جسدها ووجهها، كمن يسدل الستار على نهاية حياتها، موجها كلامه إليّ:

ـ البقاء لله، ألهمك الله الصبر والسلوان.

أنظر إليه وأنا غاية في الحزن فأقول:

ـ شكرا لك. فهل أبلّغ أحدٌ ذويها بمصابها؟

فيسألني وهو لم يدرك أني لست ابنها:

ـ ألست ابنها؟

ـ لا أنا كنت أجلس بجوارها وقد تحدثنا قليلاً .

ـ ظننتك ابنها من شدة تأثرك بوفاتها. لا تقلق سنجد ذويها ونبلغهم بوفاتها.

ـ شكرا لك.

نظرت لها نظرة أخيرة ثم غادرت الحافلة، لأجد هرج ومرج. الحافلة اصطدمت بأكثر من سيارة والإصابات كثيرة، وسيارات الإسعاف تحاول أن تخترق الزحام الشديد حيث تناثرت السيارات وتجمهر الناس يراقبون ما حدث وكأني أرى لوحة سريالية بالغة الغموض. شعرت بأني أختنق فأنا لا أطيق الزحام ولا أطيق الضوضاء الشديدة. سرت مبتعدا عن هذا المشهد

أبتغي مكان هادئ قدر الإمكان. تفاديت في طريقي جمع من الناس يقفون ليلتقطوا الصور بهواتفهم وكأنهم يشاهدون فيلما هزليا. تملكني الغضب وهممت بأن أذهب لأكسر هواتفهم اللاتي يتفاخرون بها ولكني تراجعت بضعف. تذكرت كوني صغير الجسد ولا أملك سوى بلاغة لسان لن يعوا مفاده ولن يحترموا بيانه. فآثرت السلامة وسرت مسرعا متجاوزا مكان الحادث لعلي أستقل حافلة أخرى.

توقفت أخيراً عند مكان انتظار الحافلات، وتمر الدقيقة تلو الأخرى ولم تصل الحافلة التي أرغب في أن أقلها. سأتأخر هكذا عن عملي لأول مرة منذ أن أصبحت مدرسا في هذه المدرسة. أنا أحمل بعض النقود التي بالكاد تكفيني لأستقل سيارة أجرة. توكلت على الله وأشرت لأول سيارة أجرة بأن تقف. وبالفعل وقفت على بعد عدة أمتار مني فسرت إليها محييًا قائدها:

ـ السلام عليكم يا سيدي، أريد الذهاب إلى مدرسة "الرفعة" فكم الأجرة؟

ـ عشرون.

تنفست الصعداء فهذا كل ما أستطيع دفعه ويتبقى معي مقدار ما يُمَكِّنني من العودة إلى البيت. فولجت إلى السيارة وقلت:

ـ هيا على بركة الله.

لينطلق بي وبالسيارة قائدُها لا يلوي على شيء. لقد كان مسرعا للغاية، حاولت أن أخبره أن يهدئ من سرعة السيارة حيث أني ما زلت تحت تأثير صدمة الحادث الذي ولّد داخلي رعبا من السرعة.

ـ هلا أبطأت من سرعتك قليلاً يا سيدي. أنا متعجل قليلاً ولكن ليس لهذا الحد.

يرمقني لثواني، في مرآته الأمامية، ثم يعود بنظره إلى الطريق، ويحافظ على سرعته كأني لم أقل له شيء. أدركت أني، ربما، قد أسأت إليه حين طلبت أن يقلل سرعته. التزمت الصمت طوال الطريق داعيا الله أن أصل إلى المدرسة جسدا واحدا وليس أشلاء.

وبالفعل وصلت السيارة إلى المدرسة بعد أن كدنا نرتكب ربما خمس حوادث. أعطيته أجرته واتجهت إلى المدرسة. الساعة الآن الثامنة صباحا، فكل الطلاب في فصولهم، فأسرعت الخُطى، لأجد "سعد" حارس المدرسة الأمين يقف ليستقبلني. يبلغ من العمر السبعين، كان رشيق القوام، حسن الهيئة، يظن من يراه أنه في الخمسين.

ـ متأخر اليوم يا أستاذ "علام".

دخلت عبر البوابة مندفعا لألحق بالدرس الأول فقلت له على عجل:

ـ أصبت اليوم بحادث يا عم "سعد".

فيجيب "سعد" وقد أصابه الجزع:

ـ حادث! سلمك الله من كل مكروه يا أستاذ. كيف حالك الآن؟

فقلت وأنا أهرول إلى غرفة الدرس:

ـ بخير، شكرا على سؤالك.

صوت الطلاب يعلو بالضجيج، فلا مراقب ولا متابع. دخلت الغرفة فلم يلاحظوا وجودي واستمروا في ضجيجهم. صحت بصوت عال:

ـ الكل جلوس من فضلكم.

ولكن صوتي لم يكن ليقطع تلك الضوضاء فطرقت على المكتب بقوة صارخا:

ـ كفى! اجلسوا!

تَنبّه الطلاب للتو فجلس الواقف منهم وسكتوا.

ـ أعتذر منكم على تأخري، لقد تعرضت الحافلة التي كنت أستقلها إلى حادث مما تسبب في تأخري.

لتتعالى همهماتهم وصوت نقاشهم وهم يتحدثون لبعضهم البعض. ليقف أحدهم ويقول:

- لا بأس عليك يا أستاذ علام، هل أنت بخير؟

- نعم أنا بخير والحمد لله، أشكرك على السؤال. دعوني نكمل ما بدأناه.

وبدأت ألقي عليهم الدرس، وخلال الثلاثون دقيقة المقبلة كان كل تركيزي منصب على ما نناقشه، فلم ألحظ مدير المدرسة الذي وقف عند الباب يطلب الإذن بالدخول. أشار إليّ الطلاب أن أنظر إليه، ومن استغراقي في الشرح مرت خمس دقائق والمدير واقف والطلاب يحاولون جاهدين أن ينبهوني بما غاب عني.

ـ أستاذ "علام"، هل لي أن آخذ من وقتك عدة دقائق؟

قالها المدير مقاطعا ما أقوم به حينما أصابه الضجر. نظرت إليه وقلت:

ـ أمرك سيدي المدير.

نظرت إلى الطلاب وأشرت إلى أحدهم قائلاً:

ـ "عماد" اخلفني في الصف.

وتركت الغرفة مع المدير ووقفنا بجوار الباب فقال لي:

ـ "علام"، المدرسة تحتاجك في مهمة. أنت تعلم أن الاختبارات قد اقترب موعدها، وهنالك بعض الطلبة يحتاجون منا عناية خاصة، فالطالبة "ريهام شكري" إحدى هؤلاء الطلاب. يتبرع والدها سنويا للمدرسة بمبلغ كبير. وأريد منك أن تبذل معها بعض الجهد لكي تحظى بدرجات أعلى هذا العام، حتى لو اضطررت أن تعطيها دروسا في منزلها.أنا اخترتك كونك أفضل مدرس للغة العربية لدينا لذا سيتم صرف مكافأة استثنائية لك إن أديت هذه المهمة.

ـ أليس في هذا تفرقة بين الطلاب؟ أنت تعلم سيدي المدير أني طوع أمر المدرسة ولك مني كل التوقير والاحترام ولكن هذا الأمر يخالف مبادئي التي أعمل بها. فكيف لي أن أؤثر طالب على آخر لأجل المال؟

يبتسم المدير قائلاً:

ـ دعك من هذه المثالية المفرطة، أنت تعلم مثلي أن المال هو لغة العصر

ومحراب العلم لا يعلو إلا به. سأتركك لتفكر، ولكن اعلم أن بقاؤك في المدرسة رهن بهذا.

في بادئ الأمر شعرت بالرهبة تدخل قلبي والفجاءة شلّت عقلي، أردت أن أقول لا، ولكني في النهاية سأذعن للأمر. لذا قبل أن ينهي المدير عبارته قلت:

ـ أنا موافق.

ابتسامة المدير استفزتني وجعلتني أشعر بضعفي الشديد، إنه يعلم أني سأوافق في النهاية طوعا أو كرها، وها أنا أوافق مكرها. يربت على كتفي ويقول:

ـ أحسنت، هكذا يكون العمل. ستبدأ من اليوم وأنتظر أن تحظى الطالبة بدرجات مرتفعة.

يرحل المدير وأقف بلا حراك لمدة خمس دقائق أفكر في ما فعلته ووافقت عليه. هذه الفتاة ليست في صفي الدراسي، لذا سأكون مطالبا أن اقتطع جزء من وقتي لألقنها الدروس. عدت إلى الصف لأجده كما كان في بداية اليوم أصوات الضحكات والنقاشات الحادة تعم الغرفة. لم أعرهم انتباها فأخذت حقيبتي وغادرت متجها إلى صف "ريهام" لأجد فيه المعلمة "كريمة" وهي تكتب على السبورة، طرقت الباب لترحب بي قائلة:

ـ أستاذ "علام"، أهلا وسهلا بك شرفتنا بحضورك.

ـ شكرا لك سيدتي، كنت أريد أن أتحدث إلى الطالبة "ريهام شكري" إذا سمحتي.

- "ريهام" اذهبي مع الأستاذ "علام".

لتنهض الفتاة وتتجه نحوي. فأقول للمعلمة:

- شكرا لك.

وألتفت إلى الفتاة قائلاً:

- هيا يا "ريهام".

أغادر معها غرفة الدرس قائلاً لها وهي تسير بجواري:

- كيف حالك يا "ريهام" وكيف هو والدك؟

- نحن جميعا بخير.

الفتاة رقيقة الملامح، هادئة الطباع، تبعث في نفسك السكينة حين تراها. شعرت بأني سأكون على وفاق معها.

- حدثني مدير المدرسة بخصوصك وأنك تحتاجين إلى دروس في اللغة العربية، فأردت أن أعرف الموعد والمكان المناسِبَين لكِ.

- أنا أريد أن أتقن اللغة، فأنا أحب الشعر العربي وتمنيت لو أتعلم فنونه وكيف أكتبه. يمكنك القدوم إلى منزلي الساعة السادسة مساء يومي الإثنين والخميس. فأنا أقطن في حي المروج منزل رقم ٥٣.

ابتسمت لها قائلاً:

- فليكن موعدنا يوم الاثنين القادم.

أجابتني بابتسامتها الرقيقة قائلة:

ـ سأنتظرك في الموعد.

أومأت برأسها لتحييني وتتصرف عائدة إلى صفها. وسرت في طريقي إلى مكتبي لأنتظر موعد الدرس القادم والذي على وشك البدء بعد قليل.

***

الفصل الثاني

رفات الشقاء

مندفعا نحو الهدف، يلاحقني من يلاحقني، جميعهم ليس لديهم أي أمل في الفوز، فلن يلحقوا بي. لقد حطمت الرقم القياسي، وها أنا أفوز للمرة الخامسة على التوالي.

لقد اعتدت الفوز منذ نعومة أظفاري، فالألعاب هي موطني الذي أحيا لأجله، ولا يباريني أحد إلا وألحقت به شر هزيمة. ألعاب الحاسوب أقصد، فأنا لاعب محترف أتقن جميع الألعاب، حيث أني أملكها جميعها، ولن آلو جهدا في أن أقتني الأحدث منها. فأبي هو المهندس "صابر علي" أحد أكبر الاستشاريين ومؤسس لشركة مقاولات وإنشاءات كبيرة. أما أنا فأدعى "كريم"، "كريم صابر علي" أبلغ من العمر ثلاث عشرة سنة. أنا وحيد والداي، وهما لا يرفضان لي أي طلب. نشأت مرفّها ولا أعلم للشقاء شكلا ولا هيئة. يقول أصدقائي عني أني مغرور ومتبلد المشاعر، وأنا أراهم بهذا يمدحونني، فأنا لا أرى غضاضة في أن أسابق الزمن وأسحق منافسيّ.

بالأمس وصل متابعيّ على شبكات التواصل الاجتماعي إلى عشرين ألفا بعدما أنهيت المرحلة الأخيرة من لعبة القتال الشهيرة. لقد قاربت الوصول إلى العالمية وتحدي كبار اللعبة. جالت كل هذه الأفكار في ذهني فلم أستطع النوم، والساعة قد تخطت العاشرة مساء، فخرجت من حجرتي لأشرب الماء من حجرة المطبخ لأسمع أبي وهو يحاور أمي، فاختبأت خلف الباب.

ـ إنه ليس صغيرًا وجب عليه أن يكون مستعدًا.

تقول أمي وهي مرتاعة:

ـ لا تقل ذلك يا "صابر" "فكريم" ما زال يافعًا.

ـ تدليلك له سيفسده، لقد حان الوقت ليدرك الحقيقة.

ـ لا تفعل أرجوك يا "صابر".

يبدو الأمر خطير، لذا خرجت من مخبأي قائلاً:

ـ أدرك ماذا يا أبي؟

ـ "كريم"!

قالها الاثنان معا في آن واحد.

ـ ما الذي أيقظك في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

تقولها أمي وهي مضطربة.

ـ لم أستطع النوم فذهبت لأشرب وسمعتكما تتجادلان.

فتقول أمي:

ـ فلتعد إلى غرفتك لتنام، الوقت أصبح متأخرًا، ويجب أن تصحو مبكرًا لتذهب إلى مدرستك.

بعناد تأصل فيّ، قلت:

- ولكني أريد أن أعرف فيم تتجادلان؟

- أنظر يا ولدي أنا...

- ليس الآن يا "صابر". هيا يا "كريم" عد إلى فراشك.

انصعت مع إصرار أمي وتوجهت إلى غرفتي وأنا ما زلت أريد أن أعرف ما الذي يخفونه عني، ولماذا لا تريد أمي بالتحديد أن أعلم الحقيقة؟

في الصباح اتجهت إلى المطبخ لأتناول فطوري استعدادا للذهاب إلى المدرسة، فوجدت أمي تعد الطعام ولكن عيناها كانتا حمراوتين كأنهما الجمر. فقلت مرتاعًا:

- أمي، هل أنت بخير؟

حاوَلَت أن تبتسم ولكنها انهارت باكية، فقمت بضمها، وأخذت أربت عليها وأواسيها، على الرغم من كوني لا أعلم ما بها.

- أنت فلذة كبدي يا "كريم" ومهما حدث ستجدني قريبة منك.

لم أفهم ما الذي تريد قوله. ولكنها تمالكت نفسها ومسحت دموعها ووضعت الطعام على المائدة. تعجبت كون أبي لم يستيقظ بعد وهو الذي يوقظنا من النوم في العادة. فقلت:

- أين أبي؟

سكتت أمي فلم تجب على الفور. صمتها جعلني أعيد سؤالي:

- أين أبي يا أمي؟

- لقد رحل.

قالتها صارخة وكأنها طُعِنت في قلبها بخنجر مسموم. صرختها كانت كنذير شؤم على مسمعي، فعرفت أن هناك خطب ما، فأبي يسافر كثيرًا تبعًا لما يتطلبه عمله، فقلت:

- إلى أين؟

قالت بوجوم:

- رحل إلى الأبد.

لم أفهم ماذا تقصد، كيف رحل؟ وإلى أين؟ وهل سيعود؟

- لم أفهم يا أمي.

نظرت إليّ بعينيها الباكيتين قائلة:

- أباك قد تزوج ورحل عنا إلى الأبد.

لم أصدق ذلك، فهل يتركنا أبي هكذا بلا عائل يكفلنا؟ وأنا الذي ظننت أنه يحبني ويعمل جاهدا من أجل إسعادي.

- لا أصدق ذلك. ما الذي فعلتيه يا أمي ليتركنا ويرحل؟ ليس أبي من يترك أسرته هكذا ويتنازل عن هذا الكيان، لابد أنه افتقد شيئا.

- إنه يريد المزيد من الأبناء وأنا لا أستطيع أن أنجب مرة ثانية.

كرهت أبي في هذه اللحظة وتولدت لدي مشاعر الحقد والحسرة، إنه ليس أبي من الآن وصاعدا، سأكفل أمي أنا وأكون لها القلب الحنون.

ـ لن أذهب إلى المدرسة! سأبحث عن عمل.

قلتها بلهجة قاطعة، لتتسع عينا أمي من الجزع فتقول:

ـ لا يا ولدي ذهابك إلى المدرسة يعني لي الكثير، فما الذي نجنيه من جهل مدقع؟ هيا يا "كريم" اذهب إلى مدرستك، وتابع دروسك، وكن مُجِدا في استذكارك، وسيجعل الله بعد العسر يسرا.

بخطوات متثاقلة اتجهت إلى مكان انتظار حافلة المدرسة، إنها الساعة السابعة صباحا وقد رافق الأطفال ذووهم، يُوَدّعونهم عند ذهابهم إلى المدرسة، كان أبي يصحبني معه كل يوم ونتبادل النكات والضحكات، كان صديقي العزيز والوحيد. غلبني شعوري بالقهر والحزن فاتخذت طريقي سيرا إلى اللامكان. مشيت ولا أدري كم مشيت، ولكني أدركت في نهاية اليوم أني سرت لمدة ساعتين، وقد أوشكت أن أتجاوز حدود المدينة، أخرجت هاتفي من جيبي وهممت أن أكلم والدي، ولكني تراجعت عن فعل ذلك، لن أنسى أنه غادر دون حتى أن يودعني.

أوجعتني قدمي وآلمتني بطني من شدة الجوع، ففي خضم هذه الأحداث نسيت أن أتناول فطوري، فجلست على قارعة الطريق وأخرجت شطيرة كانت أمي أعدتها لي لآكلها في المدرسة، فالتهمتها التهاما ولم أبقي منها شيئا، ثم نهضت مرة أخرى لأكمل مسيرتي تلك إلى المجهول. لم أحاول أن أعود إلى البيت أو أذهب إلى المدرسة ولكني وجدت نفسي أقترب من متجر ألعاب الحاسوب، وقفت لأشاهد من النافذة الزجاجية الألعاب المعروضة، لعل هنالك ثمة ألعاب جديدة. جزعت عندما قال مدير المتجر، وقد وقف بجواري:

ـ مرحبا "كريم"، كيف حالك؟

أردت الابتسام ولكني لم أستطع فقلت بجفاء:

ـ أنا بخير، هل توفر لديك ألعاب جديدة؟

ـ بالفعل هنالك لعبة جديدة تدعى "رفات الشقاء"، فيها يخوض بطل من اختيارك مغامرات غاية في الإثارة والروعة.

ـ تبدو مملة، فلقد أنهيت أكثر من لعبة لهم نفس القصة.

ـ هذه مختلفة، فالرسوميات تحاكي الواقع بشكل كبير كما أنها تذهب بك إلى عوالم مختلفة في كل مرحلة تخوضها.

ـ لا بأس سأشتريها لأجربها.

لقد نسيت أن آخذ مصروفي من أمي، يا له من موقف سخيف، لقد تذكرت للتو. فما مني إلا أن ابتسمت وقلت للتاجر وأنا أتفقد جيوبي:

ـ أعتذر منك، لقد نسيت المال في البيت، سوف أذهب لأحضره وأعود لأشتريها منك.

ـ لا بأس يمكنك أن تأخذها مجانا. هي هدية!

سعدت بهذه الهدية وشكرته، أخذتها واتجهت إلى البيت متثاقلا. وكل ما يراودني أنني سأحظى بوقت مختلف مع هذه اللعبة. لا أدري كيف سأواجه أمي بما فعلته اليوم. لن أخبرها.

جلست في غرفتي واجما أفكر في أبي، يصيبني الضيق كلما أتذكره وأتذكر دموع أمي، استلقيت على الفراش أحاول أن أغفو قليلاً ، ولكن يأبى النوم أن

يأتيني، فنهضت لأجرب هذه اللعبة الجديدة، لقد وجدتها رائعة بحق.

استغرقت في اللعب ولم أشعر بالوقت، لقد انتصف الليل وأنا مازلت في بدايتها. ظهرت رسالة، منبثقة من داخل اللعبة، على شاشة الحاسوب، في البداية تجاهلتها وما لبثت إلا وقد عادت للظهور لتعلن أنها ضرورية لإتمام اللعبة. في العادة أستخدم اسما مستعارا بدلا من اسمي الحقيقي لتسجيل نفسي في اللعبة، ولكن المفاجأة أن الرسالة موجهة لي بإسمي. نص الرسالة كالآتي:

"مرحبا "كريم"، شكرا لاهتمامك بلعبتنا ونتمنى لك التوفيق، نرجو منك التعليق والإفادة عن مستوى اللعبة، وهل أعجبتك أم لا؟"

كيف عرفوا اسمي؟ من المؤكد أن مدير المتجر أبلغهم به، هذا خرق للخصوصية!

كتبت لهم أن اللعبة أعجبتني ولكن يعيبها بعض النقاط والتي ذكرتها لهم وكذلك أن هناك خرق لخصوصيتي وذلك بمعرفة اسمي الحقيقي. ليأتيني الرد على الفور:

ـ هذا ليس تجاوزا. حيث أنك وافقت على ذلك عندما بدأت اللعب. نحن نعرف عنك كل التفاصيل. نعرف أنك تدرس في مدرسة "الرفعة"، وأن أباك قد انفصل عن أمك، وأنك الآن تشعر بأن أباك قد تخلى عنك، ولكنك لا تعرف الحقيقة.

أصابني الذهول مما رأيت، هذا ليس معقولا! كيف عرفوا كل هذا؟ على الفور ظننت أنهم قاموا باختراق حاسوبي ويتجسسون علي. أغلقت الحاسوب

بنزع مقبسه من الكهرباء. ولكنهم يقولون إن هناك سرًا وراء هجر أبي لي، أي حقيقة تلك؟

أعدت توصيل الحاسوب بالكهرباء وقمت بتشغيل اللعبة مجددا، ولكن الرسالة قد اختفت، حاولت أن أبحث عن طريقة لإيجاد الرسالة ولكن بلا فائدة.

ـ "كريم" لقد تأخر الوقت، يجب أن تخلد إلى النوم.

إنها أمي وقد أتت لتطمئن علي، ابتسمت في وجهها وقلت:

ـ حسنا يا أمي سأفعل الآن.

وبالفعل تركت الحاسوب يعمل وذهبت للفراش ولكن النعاس أبى أن يراودني، لقد انشغل ذهني بهذه اللعبة الغريبة وكنت آمل أن تأتي رسالة تكشف ما خفي عني، لم يطل انتظاري كثيرا فأتت رسالة جديدة وفيها:

ـ لا يمكنك النوم أليس كذلك؟ أصابك السهاد من التفكير، ولكن دعنا نقوم أولا بفهم تفكيرك وحسن تدبيرك.

لم أفهم ماذا تقصد، فهممت أن أجيب على الرسالة بَيْد أنها اختفت مرة أخرى.

***

الفصل الثالث

ليال طوال

ـ لا لن أقوم من مقامي حتى أسترد حقي.

ـ يا لك من مخادع.

ـ أتتهمني بالخداع وأنا في مقام أبيك؟

ـ أبي! أنت لص ماهر، تأكل أموال الناس بالباطل وتدعي أنك الشريف التقي الورع.

ـ أريد مالي وإلا سألجأ إلى الشرطة.

ـ افعل ما تريد، ليس لك إلا أصل مالك، أما ما تريده فهو ربا فاحش.

ـ لقد اتفقنا على هذا من قبل ووافق أبوك قبل بضعة أشهر، والآن حين مات تريد أن تضن على بحقي.

ـ أي حق هذا، لقد أعطاك أبي كل ما تدينه به، أما ما تدعيه فهو سحت.

ـ يبدو أننا لن نتفق، أين أخوك الأكبر؟

ـ أخي منشغل الآن.

ـ سأقابله إذا.

هذا أنا "هيثم"، وكما أظن، أنكم أدركتم أن أبي قد توفاه الله، وهذا الرجل الذي أنازعه هو "إبراهيم"، والذي ظن أننا سنرضخ لابتزازه، فقد كان أبي يدين له بمبلغ كبير من المال وقد سدده بأكمله وتبقى جزء من الفائدة التي وضعها "إبراهيم" على المبلغ، ولكن أبي رحل، وهذا الرجل لا توجد للرحمة مكاناً في قلبه.

يدفعني بعنف ليدخل داخل المنزل صارخا:

ـ أين أنت يا "أحمد"؟ هيا أخرج، أريد حقي.

أصابني الجنون فلم أدري بما فعلت إلا وهو ملقى وقد زهقت روحه. نعم، لقد قتلته وأنا لا أشعر، ركلته بقدمي ليستفيق ولكنه مكث بلا حراك؛ لم أفعل شيئا سوى أني دفعته بقوة ولكنه سقط على أم رأسه فوق صخرة كبيرة، أدركت أني أصبحت قاتلا حين استمعت إلى قلبه القابع في صدره بلا نبض.

دون أن أودع أخي وأختي وأمي ركضت وقد تجمع الناس حول الجسد المسجى. جريت بلا هدف وكل تفكيري منحصر في أمي التي ستفجع بمصابي، أب راحل، وابنٌ قاتل ومطلوب للعدالة، المصائب تتوالى عليها لتختبر صبرها ولا أدري هل ستتحمل.

جُلت أماكن عديدة وأخيرا استقر بي المقام في هذه المدينة الهادئة حيث عملت كمدرب للسباحة في أحد النوادي الصغيرة، لم يسألني أحد عن ماضيّ وكل ما رأوه فيّ أني ماهر في السباحة بشكل ملفت، فأنا منذ صغري أعشق السباحة وأتقنها.

وفي يوم من أيام الظهيرة الحارة وأنا أراقب الأطفال وهم يلعبون في الماء، كان أحد الأطفال الجدد يجاهد لكي يسبح، كان يرتدي سترة نجاة، وبالقرب منه طفل آخر يسخر من هيئته، أنا أعرف هذا الأخير جيدا فهو دائما يثير المشاكل حيث كان واسمه "نضال"، ولكن الطفل كان عنيدا فلم يدع "لنضال" الفرصة لكي يثير غيظه فضربه ضربة قوية، فإذا "بنضال" ينزع عنه سترته ويتركه يغرق، وبأسرع ما يكون قفزت وسبحت مخترقا سفح الماء لأمسك به وأجذبه إليّ، أخرجته من الماء وقد ضاق صدره وأوشك أن يتوقف تنفسه، فأجريت له تنفسا اصطناعيًا حتى أخرج ما في جوفه من ماء قد ابتلعه، فقلت له لأطمئن عليه:

ـ هل أنت بخير؟

فيومئ برأسه ويسعل. فسألته:

ـ ما اسمك؟

ـ اسمي "فارس".

ـ كيف تشعر الآن؟

ـ أنا بخير شكرا لك يا سيدي، أدين لك بحياتي.

ـ لا شكر على واجب يا "فارس".

بحثت عن "نضال" بنظري ولكني لم أجده فقلت بتلقائية موجها السؤال "لفارس":

ـ أين "نضال"؟

بدا وكأن الأخير أدرك أنني سأقرّعه فاختبأ في مكان ما، لقد ارتكب حماقة ويجب أن يعلم مقدار خطورة ما قام به، فيقول "فارس":

ـ لا أعلم. أرجوك يا سيدي لا تلمه، إنه لم يقصد أن يتسبب في غرقي.

ـ يجب أن يعي أن ما فعله كان سيودي به إلى السجن، على المرء أن يفكر جيدا قبل أن يقوم بعمل أخرق يكلفه حياته.

مقولتي الأخيرة أعادت لي ذكريات ما قمت به والذي تسبب في مصرع "إبراهيم"، كم تمنيت أن يعود بي الزمان لكي أقوم بالتحدث معه فقط ولا أقوم بدفعه، ولكن ما حدث قد حدث ولا رجعة فيه.

لم أجد "لنضال" أثر وكأنه تبخر ولكن هذا لن يجعلني أتغاضى عما ارتكبه. وها هو اليوم انقضى بلا مزيد من المنغصات، وقبل أن أغادر النادي جاءني من يخبرني أن المدير يريدني أن أمثل بين يديه، لذا اتجهت إلى حجرة المدير الذي استقبلني بترحاب غير عادي قائلاً:

ـ أهلا بك أيها البطل، لقد علمت بأنك أنقذت طفلا من الغرق، هذا جهد يستحق الثناء، لذا قررت منحك مكافأة نظير عملك ذاك، كما أن والديّ الطفل قد أثنيا عليك ويريدانك أن تزورهما في منزلهما اليوم ليقوما بشكرك بالشكل اللائق، وهذا هو العنوان، وهما ينتظرانك اليوم الساعة السابعة مساء.

ويعطيني ورقة مكتوب عليها العنوان، لأقول له:

ـ أنا أديت واجبي يا سيدي لا أكثر.

فيجيبني مبتسمًا:

ـ ونحن جميعا نرى أنك أجدت عملك. هيا أيها البطل لا تكن متواضعا وكن في الموعد.

ـ حسنا يا سيدي.

في الساعة السابعة تماما أقف أمام المنزل المدون عنوانه في الورقة، فأتقدم لأقرع الجرس وأنتظر، لم أرد أن أجذب الانتباه لي فما زلت هاربا من العدالة ولكن كان لابد من الإتيان لزيارة ذوي "فارس"، وإلا سيثير تمنعي المزيد من التساؤلات حولي وحول ماضيّ.

يُفتح الباب لأجد من خلفه شابا وسيم الشكل بهي الطلعة يقول:

ـ كيف أخدمك يا سيدي؟

ـ أنا "هيثم" مدرب السباحة ولقد أتيت بناء على دعوة أَبَوي "فارس"، أليس هذا هو منزله؟

ـ أنت مدرب السباحة الذي أنقذ "فارس"، مرحبا بك يا سيدي، أرجوك تفضل بالدخول.

ويفسح لي الطريق لأدخل المنزل الذي كان فخما ووسيعا، أسير قليلاً لأقطع البهو معه حتى نصل إلى صالة لا تقل رقيا عن باقي المنزل، يركض "فارس" باتجاهي ليضمني ويقول:

ـ المعلم "هيثم"، مرحبا بك يا سيدي.

ربّت عليه قائلاً:

ـ كيف حالك يا "فارس"؟ أأنت بخير الآن؟

فينظر إليّ ليقول:

ـ نعم أنا في خير حال والفضل يرجع إليك.

ـ الحمد لله.

يقول "فارس":

ـ سأعلم أبي وأمي بقدومك.

ويركض تاركا إياي مع الشاب الذي يشير إلي أن أتخذ من المقعد مجلسا، لأجلس على الكرسي فيقول الشاب بأسلوب مهذب:

ـ هل أحضر لك مشروبا باردا ليروي ظمأك؟

ـ إن لم أتعبك.

ـ بل أنت تشرفني بهذا.

وذهب ليحضر المشروب وتركني جالسا أتعجب من جمال وسعة المنزل، فأنا وأسرتي كنا نقطن في مسكن صغير مكون من غرفتين ليستا بالواسعتين ومطبخ وحمام، فحياتنا كانت بسيطة للغاية حيث كنت أعمل صيادا في البحر مع أبي وأخي، كنا سعداء بالقليل، ولكن "إبراهيم" أقنع أبي بالمال الوفير حال سفره إلى إحدى البلاد الغنية، وعرض عليه أن يمده بالمال على أن يرده ضعفين عندما يسافر، وبالفعل سافر أبي وانقطعت عنا أخباره، حتى أرسل إلينا بخطاب يخبرنا أنه بخير وأن العمل مربح، وقريبا سيعود ليخبرنا

عن الفترة التي قضاها في بلد الغربة. وتمر السنة فالأخرى ولم يرجع، وانقطعت عنا أخباره فلم نعد نعرف عنه أي شيء. حتى أنبأتنا السلطات أنه توفي في تلك البلد وأننا علينا أن نستلم رفاته، كانت صدمة كبيرة لنا فلم نكن نتوقع هذا، فأبي يتمتع بصحة جيدة وهو ليس بالهَرِم فهو كان في الخامسة والخمسين من عمره، وكان يواظب على إرسال المال "لإبراهيم" ولهذا كان هناك جزء لم يسدده قبل وفاته، وحصل ما حصل.

ـ حللت أهلا ونزلت سهلا معلم "هيثم". نحن في غاية السعادة أن نقابل بطلا مثلك.

يقولها رجل في منتصف العمر يرتدي نظارة طبية وملابس مهندمة تبدو غالية الثمن وبجواره زوجته التي هشّت لرؤيتي وقالت:

ـ شرفتنا وأسعدتنا بزيارتك سيد "هيثم"، أرجوك اجلس لا داعي للنهوض.

قالتها عندما هممت أن أنهض لأصافحهما، فبقيت جالسا على مقعدي.

أتيا وجلسا على مقعدين، بجواري الرجل وفي المقابل المرأة التي قالت:

ـ نحن مدينون لك يا سيد "هيثم" ولا نعلم كيف نكافئك، فأردنا أن نشكرك ومن ثم نقدم لك ما يرضيك.

ـ لا شكر على واجب يا سيدتي، أنا قمت بعملي ليس إلا.

فيقول الرجل:

ـ ونحن نريد أن نشكرك بما يليق بك، هل تعلم من أنا؟

- لا يا سيدي.

ينظر إلى زوجته ويبتسم ليقول:

- أنا العميد "سامي" من المباحث الجنائية.

أنا متأكد أن لون وجهي قد تغير حين سمعت ما قال، مباحث جنائية! أنا في عقر دار الشرطة التي تبحث عني الآن، فكرت كثيرا أن أغادر ولكني سأثير فضوله ولربما يطلب التحري عني ويعلم ما أرغب في أن أخفيه، حاولت جاهدا أن أكون هادئا وأن أبدو كمن لا يبالي بشيء، ولكن الكلمات وكأنها توقفت في جوفي فلم أعد قادر على نطقها، ولم أعلم ماذا أقول. أنقذني "فارس" ذو الخمس أو الست سنوات من هذا الموقف حين قفز ليجلس على فخذي، فيقول "سامي":

- إنك حقا ولد مشاغب، دع السيد "هيثم" وشأنه ولا تزعجه.

ولكن "فارس" يضمني ويقول:

- إني أحبه حبا جما.

ويستدير لينظر إلى أبيه قائلاً:

- لما لا تستأجره يا أبي ليكون معلمي في السباحة، فأنا أحبها للغاية؟

- ليس ثمة ما يمنع، ما رأيك يا سيد "هيثم" في أن تصبح معلما خاصا "لفارس" بالأجر الذي ترغب؟

بارتباك قلت:

ـ هذا يزيدني شرفًا ولكني مرتبط مع النادي ولا أريد أن أخالف بنود العقد المبرم بيننا.

فيقول "سامي":

ـ إن كانت المشكلة ستكون مع النادي، فلا أرى ثمة مشكلة، سأتحدث مع مدير النادي وحتما سيوافق، فماذا تقول؟

لقد أحيط بي وأنا أردت أن أجد مهربا من أن أكون بالقرب من هذا الضابط، ولكني لا أملك إلا أن أقول:

ـ إذا أنا موافق.

يقفز "فارس" ويركض في دائرة حولي قائلاً:

ـ مرحى...مرحى.

ويقف "سامي" مصافحا لي ليقول في حماسة:

ـ شكرًا سيد "هيثم" نحن في غاية الحبور بموافقتك وستجدنا إن شاء الله من المحسنين.

وعرض عليّ مقابلا سخيا نظير تعليمي "لفارس"، وتحاورنا في كثير من المواضيع ولكني لم أتطرق إلى جوانب عمله، وحاولت جاهدا أن أكون هادئا وعلى سجيتي تماما. حتى حان وقت الرحيل، ولكن "فارس" لا يريدني أن أغادر، فيقول أبوه:

ـ أترك معلمك يا "فارس"، سيمر عليك بالغد إن شاء الله.

فقلت "لفارس":

ـ سآتيك غدا لنذهب معا إلى النادي.

ليقول "فارس":

ـ بل أريد أن أذهب الآن.

نضحك جميعا وأقوم بالاعتذار منهم، لأغادر أخيرا وأتخذ طريق العودة إلى النادي، حيث أقطن، سيرا. فالنادي يوفر لي مَسْكَناً ويمدني بالطعام والشراب. لا أعلم أأشعر بالحبور أم بالقلق والخوف، فالآن أنا في عرين الأسد نفسه. أفكر في الهرب والذهاب إلى مكان آخر وفي نفس ذات الوقت لا توجد ضرورة ملحة في أن أرحل الآن.

وفي الصباح الباكر استيقظت نشيطا لأمارس التمارين الرياضية الصباحية التي تحافظ على لياقتي بعد تناول الإفطار وأستعد ليومي الجديد، حينها تذكرت موعدي مع "فارس"، فانطلقت إلى منزله لنحضر سويا إلى النادي، كان البيت ليس بالبعيد عن النادي، لذا لم أستغرق سوى بضع دقائق وكنت قد وصلت، قرعت الجرس ليستقبلني كما بالأمس الشاب الذي بدا كمدبر المنزل، رحب بي ودعاني للدخول، فجلست منتظرا "فارس" الذي أتى على الفور راكضا ومن خلفه أمه التي لم تنتهي من جعله يرتدي ملابسه بالكامل، ضمني بذراعيه الصغيرتين وقال بفرح:

ـ أنا مستعد.

وتمسك به أمه وتضع عليه ما تبقى من ملابسه وتقول:

ـ كيف تكون مستعدا وأنت لم ترتدي ملابسك؟

وتحييني بابتسامة رقيقة قائلة:

ـ مرحبا بك يا معلم "هيثم"، وأعتذر لك عن سلوك "فارس". من الأمس، وهو كما ترى، متحمس للذهاب إلى النادي.

ـ لا بأس يا سيدتي، فأنا و"فارس" صديقان من الآن وصاعدا، أليس كذلك يا "فارس"؟

ـ أجل بالطبع.

تأخرت كثيرا عن موعدي في النادي، فأمسكت بيد "فارس" وعدنا راكضين. وحين ولجت إلى النادي وجدت "نضال" مستغرقا في الضحك وحوله العديد من الفتيان، فيرانا و يركض هاربا، ولكني هذه المرة سأمسكه وأوبّخه على ما فعل بالأمس، جريت خلفه مناديا إياه، ولكنه لم يستجب، لحقت به وأمسكته، نهرته ولكنه كان سيء الخلق، وأخذ يصرخ فيّ قائلاً:

ـ اتركني، اتركني أيها المعتدي، لأخبرن أبي بما فعلت.

لم أملك إلا أن أتركه، إنه يخلق المشاكل حيثما ذهب، وعدت إلى "فارس" الذي اختفى تماما، هرعت إلى المسبح لعله نزل فيه ولكن لم أجد له أي أثر، جلت النادي مناديا باسمه لعله ذهب إلى مكان ما، ولكني لم أجده أيضًا ، إنه حتما هلاكي هذه المرة، أيقنت بالضياع فلن يذرني أبوه إلا ويوردني السجن، وأنا أرثي لحالي أتاني أحد الفتيان الذين كانوا يقفون مع "نضال" ليقول:

ـ سيدي أراك حزينا وتنادي على "فارس"، هل تبحث عنه؟

نظرت إليه وقد انبعث في قلبي الأمل فقلت:

ـ هل تعلم أين هو؟

ـ لا! ولكني رأيته يغادر النادي ويركب سيارة ما، ظننت أنه يذهب إلى أبيه أو أمه.

حمدت الله أن أحد والديه هو من أقله، فأكملت يومي بشكل طبيعي، ولكن ما أفزعني أن يأتي أبوه قبل المساء ليطمئن على أحوال ابنه، أخبرته بما حكاه الفتى كونه استقل سيارة منذ الصباح الباكر وقلت له:

ـ لعلها أمه من أخذته.

أصاب الذهول وجه الرجل الذي قال بخفوت:

ـ أمه لا تتقن قيادة السيارات.

ينظر إلي ويقول بحدة:

ـ أنا أحملك المسئولية كاملة إن لم يعد ابني إليّ.

ويستخدم هاتفه النقال ليقول للطرف الثاني وهو ينظر تجاهي:

ـ لقد اختطف ابني والخاطف أمامي الآن، أرسل لي سيارة لتأخذه إلى المخفر.

لم أصدق في بادئ الأمر أنه يقصدني بالخاطف وحين تداركت الأمر ركضت هاربا ولم ألتفت خلفي.

***

الفصل الرابع

القلب الجريح

هل الحقيقة تؤلم كما يؤلم الجرح النازف؟ أم هل الحب يُذهب العقل المستنير؟ كلها أسئلة راودت مخيلتي حين تذكرت حبيبي الذي كرهت حبه ونفيته من قلبي، لقد أوغر خنجرا في صدري حين تركني ليذهب إلى امرأة أخرى، والآن يَبكيني ويرثيني وقد أغلقت قلبي على الألم داخله وأتحمله وأتجاهله.

هذه قصتي مع "وفيق" الذي بفضله أصبحت أقوى وأكثر تحملاً للآلام. ترعرعنا سويا في نفس القرية، وذهبنا معا إلى نفس المدرسة، التحقت بكلية الطب أما هو فتعلم المحاسبة في كلية التجارة، وأثناء دراستنا كنا نسافر من القرية متجهين إلى الجامعة معا، نعيش أحلام العصافير بأن يجمعنا عش واحد.

أنهى دراسته قبلي وعمل مدقق للحسابات بإحدى الشركات الكبرى، شيئا فشيئا كان انشغاله بالعمل يزيد لدرجة أنه لا يقصدني بالزيارة لمدة طويلة، زاد الشقاق وجَفَت قلوبنا فأصبحنا غرباء، كانت القاضية حين رأيته وقد تأبط فتاة لم أعرفها وسارا سويا في أنحاء القرية، علمت حينئذ كم أن هذا الحب مخادع، علمت أن كل ما مررت به كان حلما وقد أفقت منه للتو.

تمر الأيام والشهور ليُقرع جرس الباب، وكان هو الطارق، أتاني مرة أخرى ليعتذر ويريد خطبتي من أبي. في البداية وجدت أبي متحمسا لهذه الخطبة،

ولكني أبديت له رفضي القاطع، لست هذه المرأة التي ترضى بالفتات، لست التي تكون مجرد واقعا بديلا حين يفشل هو، حاول أبي أن يقنعني ولكني أقنعته بأن هذا الشاب ليس الذي أستحق، فاعتذر منه أبي وكانت صدمة عنيفة "لوفيق"، هل كان يظن أنني منتظرة منه إحسان بزواجه مني؟

وبالرغم من رفضي الذي أبديته ولكنه أبا أن يستسلم، فجاءني بباقة وَرْد في المشفى حيث أعمل، كانت المفاجأة من نصيبي، فلم أكن أتوقع أنه سيصر على أن يأتيني بهذا الشكل. في بادئ الأمر أردت أن أرفض هديته تلك، ولكن زميلاتي أقنعوني بقبولها، كان رأيهن أن أعطيه فرصة ثانية، لم أقتنع كليا ولكن في قرارة نفسي تمنيت أن أكون على خطأ وأنه اتعظ. ولكن ما حدث بعدها أثبت لي أنه لم يتغير، إنه يريدني أما لأولاده وهو يمرح ويغازل من يشاء. أحد الأيام تتبعته حين تركني متعذرا أن عنده موعد لا يستطيع أن يخلفه، رأيته وهو يسير مع إحدى زميلاته وضحكاتهما تجلجل، ابتسمت لأني كنت متوقعة أن يحدث هذا، ولكي أشفي غليلي اعترضت طريقهما ليرتاع لرؤيتي، لم أتكلم ولكن صمتي كان أبلغ من الكلام، نظرت في عينيه اللتين ذبلتا وشفتيه اللتين ترتجفان، أدرك أني لست هذه الفتاة الغبية وأني كنت أعلم عنه خلقه المعوج.

أكملت حياتي وقد أدركت حقيقة الحياة، لا يوجد ما يعرف بالوفاء، وإن هي إلا نزوات تأتي وتذهب. أغلقت قلبي دون ما يسمى بالحب وانشغلت بعملي وعلمي.

تمر السنين وصارت حياتي مجردة من كل المشاعر، حاول الكثيرون التقرب

مني ولكني صددتهم، ارتقيت المناصب حتى أصبحت مديرة إحدى المستشفيات الكبيرة.

وفي أحد الأيام وأنا أسير في طرقات المشفى صادفتني حالة شاب وقد أصابته الحمى، وكانت أمه جزعة وترجو الطبيب المعالج أن ينقذه وهو يحاول تهدئتها. يصاب الشاب بتشنجات شديدة، فتجزع الأم، ويصرخ الطبيب ليطلب العقار المهدئ، وتركض الممرضة لتحضر الدواء، وفي خضم هذه الأحداث تَطلب الأمر أن أتدخل لأنقذه. وقد كان، فبعد جهد جهيد وعمل كثير أنقذنا حياته من موت محقق، وكانت أمه شاكرة لي جدا على ما فعلناه لأجله، أما هو فقد تحسنت صحته كثيرا وارتبط بي ارتباطا وثيقا، فيزورني كل يوم محمل بالهدايا والزهور.

"مروان" أصغر مني بخمس سنوات كاملة، وبالرغم من كونه يافعا ولكنه كان رجل بمعنى الكلمة. أتحدث بلا مواراة عن كرمه ونبله، وعن شجاعته وإحقاقه للحق، لقد كان يمتلئ رجولة تكفي مدينة بأسرها، لا أعلم لماذا تعلق قلبي به هذا التعلق على الرغم من أني قد أبقيت قلبي بمعزل عن الحب وآلامه. وفي خضم الأحداث المتلاحقة كان رؤيته كرؤية القمر في الليل البهيم، كان لا يمر عليّ اليوم إلا وقد أصبحت رهينة نظراته وأسيرة لخفقات قلبه. توطدت علاقتي به وبأسرته. وفي أحد الأيام أخبرني أنه قد أعد لي مفاجأة مذهلة ستبهجني، منيت نفسي بأنه سيطلب أن يتزوجني ولكني استبعدت الأمر تماما، فأنا أعد أخته الكبرى ولا أظن أنه سينظر إلى بنظرة مختلفة، لذا ابتسمت ابتسامة حزينة قائلة بنوع من الجمود:

- وما هي؟

نظر في عيناي التي كانت على وشك الهروب من نظرته الساحرة ليقول:

ـ ستعلمين بعد قليل.

ولم يتأخر الأمر كثيرا فقد أتى أبواه إلى المشفى وهما في غاية السعادة، اقترب مني والده ليقول:

ـ عزيزتي نود أن نزوركم في البيت لنقابل أباك وأمك.

لم أصدق ما سمعته أذناي للتو، هل هذا يعني أنهم يريدونني لابنهم؟ فأجبتهم بارتباك:

ـ تسعدنا زيارتكم في أي وقت يا سيدي.

ـ هل يناسبكم الغد بعد صلاة المغرب؟

ـ نعم، إنه وقت مناسب.

ـ إذا إلى الغد بإذن الله.

نظرت إليه وابتسامته طغت على ملامحه فيهز كتفيه كناية عن أنه لا يعلم أو هكذا يدعي، أصابتني الحيرة فما زلت لا أصدق.

وفي الغد كانت حملة تنظيف وترتيب لمسكننا البسيط في القرية حيث الزيارة المرتقبة، أبي ارتدى أفخم ملابسه وكذلك أمي وأختي الصغيرة، والكل يحتفي بهذه الزيارة أملا في تغيير واقعي من فتاة إلى امرأة، ما زلت لا أصدق أنه يريدني فهذا أبعد ما يكون عن الواقع.

وأتى الزوار محملين بالهدايا في جو مليء بالسعادة، وكان الاستقبال حافلاً

وخصوصًا أبي الذي سعد بهذه الزيارة، واجتمع الرجال في مجلس واحد وجلسنا نحن معشر النساء معا نتبادل الضحكات ونتسامر بالحديث، لم تقل ضيفتنا عن طبيعة هذه الزيارة ولم تفصح عن شيء، وأمي لم تحاول أن تسألها عن ذلك كون هذا إساءة أدب، ولكني لم أستطع أن أكتم فضولي أكثر من هذا فقلت:

ـ سيدتي زيارتكم هذه تعني لنا الكثير ولكننا أثقلنا عليكم بالهدايا والتذكارات وكأنكم أتيتم لخطبة ابنكم.

ابتسمت المرأة بدهاء وتصمت قليلاً ثم تقول:

ـ دائمًا أقول عنك أنك ذكية يا "مروة"، بالفعل لقد جئنا من أجل الخطبة.

إذا كنت على خطأ، إنهم يريدونني لابنهم الشاب، وقبل أن تملأ الفرحة صدري وتغزو ملامحي، كانت ما قالته ضربة قاصمة لكل أحلامي:

ـ لقد جئنا لنخطب "سعاد" "لمروان".

وكانت النازلة على أم رأسي، لم أرى هذا أبدًا قادمًا، الرجل الذي أحببت يريد أختي بدلاً مني، حاولت ألا أبكي ولكن دموعي سبقتني، فضمتني أختي ظنا منها أنني أبكي فرحا لها، ولكن الحزن يكاد يقسم قلبي نصفين، لاحظت أمي ما أصابني وأظنها أدركت ما أنا بصدده، وحاولت جاهدة هي الأخرى أن لا تبدي ضيقها بما حدث، ولكن متى حدث هذا؟ كيف ارتبط مروان بأختي الصغيرة وأختي لا تخفي عني شيء؟ فهل أخفت هذه المرة علاقتها "بمروان"؟ أسئلة كثيرة مرت بمخيلتي وجالت بعقلي. بالطبع رحبت أمي بهذه الخطبة "فمروان" شاب تتمناه كل فتاة وأسرته أسرة دمثة الخلق، وتبقى

موافقة أبي والتي أظنها حاضرة، فأبي لن يؤخر زيجة "سعاد" ويكفيه بنت واحدة مضربة عن الزواج هو أنا.

رحل الزوار واتسعت ابتسامة أبي ليقول:

ـ إنهم أناس محترمون ونفخر بمعرفتهم.

فتسأله أمي:

ـ هل تكلمتم في خطبة "سعاد"؟

فيجيبها بفخر:

ـ نعم، وقلت له أننا نشرف بأن تكون ابنتنا زوجا لابنكم.

وتنظر إلى وتقول:

ـ وماذا عن "مروة" لقد كان "مروان" مريضا تتابعه وأنقذت حياته؟

فأقاطع حديثهما لأقول وقد كتمت شجني:

ـ "مروان" مثل أخي الصغير، ولقد علمت عنه كل شيء وكيف أنه شاب مهذب ووقور وتتمناه كل فتاة لنفسها.

فتتقافز أختي حول أبي كالطفل الصغير وتقول:

ـ إذا لقد وافقت يا أبي، أنت أعظم أب في الوجود.

يقول لها:

ـ مبارك يا ابنتي وبالرفاء والبنين.

الفصل الخامس

للحقيقة بقية

مازال النوم يجافيني والأرق يراودني، لم أعرف للرقاد سبيل، لقد وقع حبها في قلبي ولا أجد دواء لهذا الحب، أنا أكبرها ربما بعشر سنين ولكنها الفتاة التي طالما تمنيتها لنفسي، ربما تقول عني أنني امرؤ منحرف التفكير لأعجب بفتاة صغيرة، بدلا من أن أكون المعلم والقدوة، ولكن للقلب أسرار لا يعلمها إلا خالقه.

خلال الأيام التي تلت لقائي الأول "بريهام" أصبحت مفتونا بها، أتوق إلى لقائها كل يوم لأرى ابتسامتها الرقيقة ومهجتها البهية، لقد أذهبت كياني وأسكرت عقلي وجعلتني كمجنون ليلى، أقرض الشعر واصفا جمالها ومتغزل في رقتها، بدا عليّ علامات العشق حتى الداني والقاصي لاحظ تغيري، صرت أكثر اهتماما بمظهري فأتطيب وأتزين وأرتدي أحسن الثياب، لقد غيرتني كليا شكلا وموضوعا، لم أستطع أن أصارحها بمشاعري، فما زلت أرى نفسي في معزل عنها، فهي ما زالت غضة يافعة، وأسرتها أسرة ثرية وأنا الفقير فقرا مدقعا لست ندا لها، ولكني سأحبها حتى نهاية الكون.

ـ ماذا تقول عن الحب يا سيدي؟

نزل علي هذا السؤال نزول الصاعقة عندما سألته "ريهام"، تقصد وجهي عرقا واحمرت وجنتاي وصرت كالطفل الصغير المتلبس بالجرم المشهود،

هل علمت بنواياي؟ أجبتها بارتباك:

ـ ماذا تقصدين؟

ـ هل للحب علامات؟

وددت لو أخبرتها أنني عاشق ولهان، وأن ما أمر به هو الحب في أزهى أشكاله، فقلت:

ـ لماذا تسألينني عن هذا؟

ـ لا أدري! ولكني يصيبني وجوم وأشعر باللهيب يضرم في قلبي عندما أراك يا سيدي.

تحملق فيّ بعينيها المخضبتين بالسواد إثر رموشها الغزيرة، وكأنها تحاول أن تخترق روحي وتسبر أغوار نفسي، بالرغم مما قالت، ولكن لا أمنّي قلبي بهذا الحب، لعلها تريد أن تخدعني أو تلعب بمشاعري، تلجّم لساني فلم يستطيع أن يخرج الكلمات فسكت لتكمل قائلة:

ـ يبدو أني أحبك يا "علام"، فهل تحبني كما أحبك؟

لا أستطيع أن أكتم مشاعري أكثر من هذا، فقلت:

ـ منذ أن رأيتك وأنت مهجتي وبهجتي.

يرتفع حاجبيها الدقيقين وقد فاجأتها بإجابتي، فتبتسم لتقول:

ـ إذا أنا صادقة في إحساسي، أنت تحبني.

ـ بل أنا أعشقك يا حبيبتي.

ما زلت لا أصدق نفسي، لعلي أحلم! ولكنه حلم جميل لا أريد أن أستيقظ منه، ولكن وقت الدرس قد انتهى، وأتت أمها لترافقني إلى خارج المنزل كما اعتادت، تبادلنا النظرات والابتسامات وأدركت أني لست نائما حين تركتها ورحلت.

وفي اليوم التالي مرت ساعات الصباح عليّ مرور الكرام، وهذا ما تمنيته، أن أستطيع رؤيتها في المدرسة، ولكن ما عاينته كان مريبا، لقد رأيتها وزميلاتها وهن يتغامزن حين مررت بجوارهن، لم يعجبني الأمر، يبدو أنها أخبرتهن بحقيقة مشاعري لذا أتعرض لهذا الهمز واللمز، اشتطت غضبا فقد أضحيت أضحوكة المدرسة، المعلم الذي يعشق تلميذته، لاحظت حتى نظرات زملائي وزميلاتي وفيها عتاب واستنكار، استوقفتها وهي متجهة إلى غرفة الدرس وبانفعال شديد قلت:

ـ يبدو أنني خُدعت فيكِ، ليست مشاعري لعبة تمرّريها كما الكرة لزملائك، من الآن فصاعدا لست معلمك الذي يستباح وقته وجهده، لست هذا الرجل الذي يبقي لك ذرة حب في سويداء قلبي وأنت تجعليني أضحوكة المدرسة.

ابتسمت ابتسامة الواثق لتقول:

ـ هون عليك يا معلمي الحبيب، يبدو أنك أسأت الفهم، أنا لم أجعلك إلا ضياء عيني ونور قلبي، أنا لم أخدعك أبدا، بل أصدقتك القول ولكنك تتجنى علي بأقوالك تلك.

كلماتها كانت كالماء الذي ينضح النار المستعرة، والثلج الذي يبرد جوف الظمآن في لهيب الصيف، لم أعرف بماذا أجيب، لقد كنت قاس عليها:

ـ أعتذر منك حبيبتي، لعلي أفتقد وجودك وأخشى أن أفقدك، خاب ظني والحمد لله، أنت لم تخبري أحدا بما قلته لك بالأمس.

ـ وماذا لو أخبرت الدنيا بأكملها، فحبي لك صادق ولا يحتاج تورية، بل هو مفخرة لي وضياء يملأ حياتي بأكملها. وماذا عن حبك لي، ألا يجب أن يرى النور؟

ـ أجل. ولكن.

ـ لا تقل لكن، لا شيء يقف أمام حبنا، سأضحي بكل شيء من أجلك وأنت ستفعل المثل، أليس كذلك؟

فقلت مستسلما:

ـ بالطبع سأفعل المستحيل من أجلك يا حبيبتي.

فيأتي الصراخ من خلفي يوشك أن يثقب طبلة أذني ويصيب كلانا بالذعر:

ـ حبيبتك!

لقد كانت "كريمة"!

فتكمل صراخها قائلة:

ـ أتخدع الفتاة المسكينة بحلاوة لسانك وحسن بيانك؟ تالله لأجعلنك تندم أشد الندم على ما اقترفته في حقها.

ـ سيدة "كريمة"...

ـ لا تذكر اسمي أيها المخادع.

وتلتفت إلى "ريهام" لتقول:

- هيا يا بنيتي إلى غرفة الدرس ودعك من هذا الهراء فهو محض خدعة لا أكثر.

حاولت أن أتكلم ولكنها تركتني وأخذت "ريهام"، لا أدري ما الذي ستفعله، هل ستذهب بهذا إلى مدير المدرسة؟ أم هل ستخبر ذوي الفتاة بما رأت؟ في كلتا الحالتين أنا هالك، سأفقد وظيفتي في المدرسة، وسيُعلم عني أني أغازل تلميذاتي، ولن تقبلني أي مدرسة أخرى لأكون معلما فيها.

فكرت في حل جنوني يرفع عني الحرج، أتقدم لخطبة "ريهام" من أبيها وليكن ما يكون.

وبالفعل غادرت المدرسة متوجها إلى منزلها دون أن أعبأ بدروس اليوم التي من المفترض أن أقوم بشرحها للتلاميذ. وصلت إلى منزلها بسيارة أجرة، ثم استأذنت للدخول على أبيها، وكانت لحظة الحقيقة الفاصلة، سيصدم أبوها حين أقول له ذلك، أنا متأكد أنه سيطردني من منزله، فأنا لست هذا الشخص الذي يمكنه الزواج "بريهام"، أتوقع أن أهلها سيزوجونها بشاب في مثل عمرها من أسرة ميسورة الحال.

قابلني والدها مرحبا بمقدمي، فطالما وجدته هذا الرجل الخلوق، جلسنا سويا نتسامر وتكلمنا كثيرًا حول مسار التعليم وآخر المستجدات، وإذا بالصمت يطبق على الحوار لوهلة، ثم قلت له بشجاعة لم أعهدها في نفسي:

- سيدي لقد أتيت اليوم متجاوزا حاجز الخوف والرهبة من القدوم إليك، وما

أقوله قد تظنه دربا من الجنون، ولكني استجمعت شجاعتي وكلي أمل في أنك ستتفهم مطلبي.

ـ هل تريد أن تتقدم لخطبة "ريهام"؟

يا له من رجل! لم أتوقع أن يدرك مقصدي بمثل هذه السرعة، ولكنه جعلني كمن تجرع ترياق الأمل، فقلت:

ـ أجل يا سيدي! فأنا أجد فيها الحلم والكيان الذي يجمع شتات نفسي ويجعلني شخصا مختلفا تمامًا، وبها أضحت حياتي كوكبًا دريًا مملوء بسبل السعادة والوئام، وبدونها أكون كالمجنون الذي فقد صوابه وحال الهذيان دون أن يعود لرشده.

ـ ولكنك تفوقها سنا! ربما بعشر سنين، كما أنك لن تستطيع معها صبرا، فهي متقلبة المزاج، كثيرة الشكوى ولا ترضى بالقليل.

ـ سأصبر عليها يا سيدي فهي زهرة قلبي وكل حياتي.

ـ أنت وشأنك.

ـ هل هذا يعني أنك موافق يا سيدي؟

ـ أنا لا أمانع أبدا، ولكن اشترط عليك شرطين، أن تقطنا معنا في البيت ولا تغادراه أبدا حتى لو توفاني الله، فهذا المنزل هو كل ما يرمز لعائلتنا، وفيه ترعرع آبائي وأجدادي.

يا لها من زيجة! أحظى بالزوجة التي طالما تمنيتها وبمسكن أيضًا ، هذا والله لنعمى الزواج.

ـ والشرط الثاني أن تعمل معي وتكون عضدا لي، فأنا لم أحظى بالبنين وأفتقد إلى الولد الصالح الذي يكون عونا لي، وهذا ما أراه فيك.

وأحظى بالعمل أيضًا ، إن هذا لشيء يراد، لم أتردد كثيرا فقلت:

ـ موافق يا سيدي على كل شروطك.

ويا ليتني لم أفعل! لم أتحرى شيئا عن الرجل ولا عن نوع عمله، لم أعلم عن "ريهام" سوى أنها فتاة أحلامي.

لقد كانت فتنة عظيمة لي ولم أدرك كم أنا أخرق وأحمق إلا بعد أن انتهى كل شيء.

في البداية كانت المفاجأة من نصيبي حين علمت أن "ريهام" لم توافق على خطبتي لها، وهذا شيء لم أتوقعه، بل ربما كان صدمة حقيقية لي، وتذرعت بأنها تريد فرصة لكي تعرفني أكثر، فقلت في نفسي هذا شيء طبيعي، فربما تريد أن تتأكد من صدق مشاعري وطيب سريرتي. داومت على ملاحقتها في المدرسة وفي بيتها وهي تعتذر أحيانا وتتذرع أحيانا أخر بالتعب والإرهاق وبالمذاكرة وبضيق الوقت وقلة النوم، ولعلها لم تكتفي من إيجاد الأعذار لكي تتجنبني تماما. حاولت بشتى الطرق أن أفهم ما خطبها ولكني لم أقف على حقيقة الأمر.

وجاءت لحظة الحقيقة المريرة، حين قالت لي أنها أعادت النظر ووجدت أن الحياة بيننا مستحيلة، فهي تعتبرني معلمها فقط لا أكثر، كان قولها كمن يسكب الثلج على رأس مخمور، لقد لوعني حبها فلم أرى حماقتي وعجلتي، ولم أدرك خسارتي الحقيقية حين هويت في غياهب قسوة الحب.

أما أبوها فقد كان يعمل في تجارة السيارات، وأرادني أن أتعلم منه أسرارها والتي تتمثل في التجرد من الآدمية، فقد كان العاملون معه هم للعبيد أقرب منه للتابعين، وأيضًا كانت حقوقهم مهضومة ورواتبهم شحيحة، وجدت نفسي منهمك في أن أصبح كائنا أكثر قسوة وقدرة على إيذاء الآخرين، أن أتحول إلى وحش كاسر أنال من الضعفاء، وهرا رقيقا مع من هم على شاكلتي من التجار والعملاء، وهذا مخالف لطبيعتي تماما. انتظمت في العمل قليلاً وحاولت أن أكون عند حسن ظن أبيها، ولكن أدائي لم يكن مقنعا له، فافتعل معي جدال حول لا شيء مثل أني آتي العمل وأغادر في موعدي، بدا وكأنه يريدني أن أقيم في العمل ولا أغادر، مما جعله يذهب مغاضبا وقد رغب في أن يزيحني عن طريقه، فلم أعد هذا الابن المرجو.

كل هذا وأكثر جعل زواجي "بريهام" مستحيلا، فانفصلنا ولم تبدو متأثرة برحيلي ولا أبوها، أما أنا فأشعر إلى الآن بغصة في قلبي، أو ربما انفطر كمدا.

أصبح وجودي في المدرسة يذكرني بها ورؤيتها يدمي فؤادي، لقد أصبَحَت هي عذابا مقيما لي، وجعلني هذا أعود، إلى عهدي القديم، مهلهل الملابس وذو شكل مزري، لذا أخذت القرار أن أغادر المدرسة. ولكن إلى أين أذهب؟ فهي قد استولت على عقلي وجوارحي وستصاحبني حيثما ذهبت.

أراها وهي تضحك غير عابئة بحبي لها الذي لا يندثر وبإحساسي المضطرب الذي لن يزول، فكل ضحكة هي سكين توغر في صدري، وددت أن أعود لها فأقر بذنبي لعلها تغفر لي، رغم أني لا أعلم فيما أذنبت في حقها.

رأتني "كريمة" على ما أنا عليه فرثت لحالي، أراها تنظر إلي وأعلم أنها تود مساعدتي ولكن ليس هناك أمل، لقد تحطمت آمالي على صخرة قسوة "ريهام".

وفي صبيحة أحد الأيام جاءني خبر خطبتها لشاب كالصاعقة تهوي علي لتحرقني حرقا، ومن أخبرني كانت "كريمة" التي أتت على استحياء لتقص علي الخبر وترجوني أن أبتعد عن طريقها، لم أصدق أو بالأحرى لم أرد أن أصدق، كان الأمل يحدوني أن أعود لها يوما ولكن هذا الخبر كالنصل يقتل هذا الأمل، لم أتمالك نفسي وقلت "لكريمة":

ـ هذا لن يحدث وأنا على قيد الحياة.

واندفعت نحو حجرة "ريهام" الدراسية، وتركض "كريمة" خلفي لتوقفني وهي تردد:

ـ "علام" توقف، توقف يا "علام".

وأقتحم الصف الدراسي. اقتحمت الصف بغلظة شديدة وفيها أحد المعلمين والذي فزع لدخولي المفاجئ. بحثت عنها فلم أجدها.

ـ أين ذهبت؟

قلتها ونظرت إلى المدرس الذي لم يفهم عن من أتكلم.

كررت السؤال "لكريمة" التي لحقت بي:

ـ أين ذهبت؟

فتجيب وهي تلتقط أنفاسها المتسارعة:

ـ لقد عادت إلى منزلها، فقد شعرت بوعكة صحية.

فسرت مسرعا باتجاه باب المدرسة لألحق بها ولكني شعرت بصعوبة في تنفسي وألم في صدري فوقفت قليلاً ولكن الألم لم يقل بل ازداد، فجلست على الأرض ممسكا بصدري أحاول جاهدا أن أنهض بلا جدوى.

***

الفصل السادس

السر

في هذا اليوم الغريب حدثت أشياء يحار لها العقل، ومن هذه الحوادث سقوط أحد الأساتذة مغشيا عليه في منتصف النهار. حينها صرخت المعلمة "كريمة" تطلب المساعدة، وعلى إثر صراخها خرجنا لنتفقد ماذا حصل، لنجد الأستاذ "علام" مغمى عليه، وهي تحاول أن تعيد له وعيه بلا فائدة، وأتت طبيبة المدرسة لتتولى الأمر وتقوم بعمل الإسعافات اللازمة، ولكنها بدت عاجزة، لتقول للمعلمة:

- إنها ذبحة صدرية ويجب نقله إلى المستشفى في أسرع وقت.

ولكن المعلمة "كريمة" بدت حائرة لا تدري ماذا تفعل، فقلت لزملائي:

- هيا بنا يا رفاق، لنذهب به إلى المشفى.

فتقدمت لأحمله ومعي اثنان من زملائي وخرجنا به لنجد سيارة أجرة في انتظارنا، وقد قام أحد التلاميذ بإيقافها من أجلنا، والتي انطلقت بنا إلى أقرب مركز صحي.

- "كريم" ماذا سنفعل الآن؟

يسألني أحد زملائي وقد أدخلنا المدرس إلى المستشفى وتولى الطاقم الصحي

العناية به وقد أخبرونا أنه سيكون بخير، فأجبته وأنا أنظر إلى رفيقيّ الآخرين:

ـ يمكنكم العودة وإخبار الآخرين بوضعه الصحي، أما أنا فسأنتظر قليلاً حتى تتحسن حالته.

ـ كما ترغب.

وأخرجت هاتفي المحمول حيث يمكنني أن أقضي به بعض الوقت وألعب، لتأتيني رسالة من رقم مجهول عبر الهاتف فحواها: " لقد نجحت في مهمتك الأولى في "رفات الشقاء" لذلك سنخبرك بالسر، أبوك ترك أمك لأنها تخونه، وأبت أن تتركك لتغادر معه."

لم أصدق ما قرأت، أمي خائنة! هؤلاء كذابون مخادعون، أنا لا أصدق.

نسيت أمر المدرس "علام" تماما واتجهت إلى منزلنا على الفور، ما زلت أفكر في الرسالة وأنا في طريقي إلى البيت وقد ركبت سيارة أجرة. هذه المرة وجدت سيارة العم "فؤاد" صديق والدي المقرب أمام المنزل، فتحت الباب واتجهت إلى الداخل لأسمع صوت ضحكات ماجنة، إنه صوت أمي، تتبعت الصوت فإذا به في غرفة نوم أبي، ما زالت الضحكات تتردد في أذني من الغرفة المغلقة، طرقت الباب بعنف صارخا:

ـ أمي هذا أنا، أخرجي من عندك.

أسمع صوت قدميها وهي تركض هنا وهناك وتفتح الباب بعد بضعة دقائق لتخرج وهي تبتسم قائلة:

ـ لقد عدت من المدرسة مبكرًا، هل أنت بخير؟

أزحتها جانبا واتجهت صوب الغرفة لتمسك بذراعي قائلة:

ـ أين تريد الذهاب؟

أجيبها وأنا أحاول الإفلات:

ـ سأدخل الغرفة.

تقول وقد اتقدت عيناها بنار الغضب واحمر وجهها:

ـ وماذا تريد من الغرفة؟

وقفت قائلاً في مواجهتها:

ـ ماذا يفعل عم "فؤاد" هنا؟

ـ "فؤاد"! من أخبرك أنه هنا؟

ـ سيارته تقف أمام المنزل.

غافلتها واندفعت لداخل الغرفة لأجد "فؤاد" الذي فزع لرؤيتي، وأصابتني المفاجأة بشيء من الجمود. حتى قبل قليل لم أكن لأصدق ما رأيت، ولكن الآن أدركت الحقيقة، أبي لم يكن ظالم لي ولكنه كان الضحية، ارتاعت أمي من وقوفي أمام "فؤاد" ولاحظت انفعالي الشديد، فخَشِيَت أن أعتدي عليه فوقفت بيني وبينه قائلة:

ـ ارحل الآن يا "فؤاد".

هرع "فؤاد" إلى خارج المنزل ووقفت متسمرا في مكاني فاقدا للنطق، استفقت بعد بضعة دقائق لأنظر إليها بجمود، لم أنبس ببنت شفة وركضت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي وأوصدته بالمفتاح، ثم انخرطت في البكاء، بعدها أتت أمي لتطرق الباب قائلة:

ـ يا "كريم" ليس الأمر كما يبدو، لقد كان يزورنا فقط. أرجوك يا "كريم" افتح الباب، دعني أوضح لك.

ولكني لم أصدقها، لقد رأيت بنفسي ما كانت تخفيه عني، وربما ما أراد أبي أن يخبرني به ولكنها منعته متعذرة بصغر سني، لا أدري ماذا سأفعل الآن، وجدت نفسي أخرج هاتفي وأقوم بمهاتفة أبي، أتاني صوته يقول:

ـ "كريم" لقد اشتقت إليك، كيف حالك يا ولدي؟

أجهشت بالبكاء واختنق صوتي فلم أستطع أن أجيب.

ـ ولدي الحبيب إنه يدمي قلبي أن أسمع صوت بكاؤك، أردت أن أهاتفك عدة مرات ولكني اتفقت مع والدتك أن أبتعد عنك تماما، لقد كنت أحمقا حين وافقت على هذا، لا تبكي أرجوك فأنا نادم أشد الندم على تركك هكذا دون أن أوضح لك الحقيقة، ويعلم الله كم يحزنني أن أبوح لك بما أردت أن أخفيه عنك لأبقي صورة أمك نقية، ولكنها آذنتني وحطمت كل ما بيننا من حب واحترام، لقد....

قاطعته هذه المرة قائلاً:

ـ لقد علمت يا أبي وأتفهم تماما ما قمت به ولِمَ قمت به.

ـ أحمد الله على تفهمك لهذا الأمر بالرغم من يفاعة عمرك. هل آذتك والدتك أو مستك بسوء؟

ـ لقد فعلت.

ـ ماذا؟ إذا حان الوقت لتتركها وتأتي إلي، أنا في حي النخيل، قابلني عند مرآب السيارات الرئيسي.

ـ وماذا عن أمي؟ لن تتحمل فقداني.

ـ لو كانت تعبأ بك ما كانت لتؤذيك.

فكرت قليلاً ولكني لم أحسم الأمر، فما زلت لا أطيق أن أبتعد عن أمي.

تعلو طرقات الباب ليأتي صوت أمي من خلفه:

ـ هيا يا "كريم"، هيا يا بني، لا تتعب قلبي، افتح الباب.

ويأتي صوت أبي عبر الهاتف:

ـ "كريم"، هل تسمعني يا ولدي؟

أقف الآن حائرا بين الإثنين، لا أعلم لمن أنصاع أو لمن أميل، أمي التي أمثل لها كل شيء في حياتها، أم أبي الذي أعتبره صديقي الوحيد. حسمت أمري فأنهيت مكالمة أبي ولم أعر انتباها لطرقات ونداءات أمي وحزمت أشيائي وقفزت من النافذة تاركا كل شيء ورائي.

***

وصلت إلى وجهتي، إلى المشفى حيث يرقد المعلم "علام"، واتجهت صوب غرفته لأجده قد استفاق، فيبتسم ويقول لي:

ـ أنا مدين لك بحياتي. أنت "كريم"، أليس كذلك؟ ما فعلته معي فاق كل شيء.

ويصافحني بحرارة فأقول له:

ـ بلى يا سيدي، أدعى "كريم" ولم أفعل إلا ما تحتم علي فعله وهو الواجب.

سَكَتُّ لأفكر فيما أقول حتى واتتني الشجاعة:

ـ أريد أن أطلب شيئا يا معلم "علام"، وأنا في غاية الحرج أن أسأل.

فيقول متحمسا:

ـ أي شيء تطلبه يا "كريم" سألبيه لك.

سكت لوهلة ثم قلت:

ـ أريد أن أمكث معك في مسكنك.

تغير وجهه قليلاً ليقول متسائلاً:

ـ هل ثمة ما يحزبك؟ لا أريد أن أكون فضوليا، إذا أردت ألا تجيب فأنا متفهم تماما، وبالطبع أنت مرحب بك في أي وقت.

ـ إنه أبي قد افترق عن أمي وصرت مشتتا بين الاثنين، أريد أن أنفرد بنفسي لأتخذ القرار المناسب مع من سأمكث.

يبدو التأثر على وجه "علام" ليقول:

ـ أنا مقدر لموقفك وإنه لقرار صعب لتتخذه.

وينهض من سريره ويقول:

ـ هيا بنا لنعد إلى المنزل فقد أتعبني الرقود.

وفي منزله حيث الأشياء مبعثرة وتسود الفوضى، لهج لسانه بالاعتذارات وهرع ليرتب المكان، فأمد له يد العون، وحال انتهائنا يشير إلى الفراش قائلاً:

ـ سأترك لك هذا السرير وسأنام أنا على الأريكة.

أبديت اعتراضي في البداية حيث وجدت أنه لا يليق، ومع إصراره رضخت، المسكن كان متواضعا بعكس منزلنا الوسيع ولكني شعرت بالراحة فيه، قمت بتغيير ملابسي وقمت بإخراج حاسوبي المحمول من حقيبة أحملها لأجد فيه لعبة "رفات الشقاء" ما زالت مدرجة في مشغل الأقراص، فقمت بتشغيلها لأكمل ما توقفت عنده، فلقد حمي الوطيس وازدادت اللعبة إثارة، وإذا بالمعلم يستأذن ليشاهدني وأنا ألعب، فأشير إليه بأن انضم إليّ، لقد تخطيت مرحلة جديدة، وإذا بجرس هاتفي يعلو فأنظر إليه فإذا هو أبي، تجاهلته وأكملت لعبي، لمحت نظرات الانبهار على محيا المعلم الذي بدا أنه يريد أن يجرب، فقلت له:

ـ هل تريد مشاركتي اللعب؟

فيجيب بشيء من الخجل:

ـ إن كنت لا تمانع.

ـ على العكس، دعني أشرح لك طريقة اللعب. سأقوم بتسجيل بياناتك أولا.

وفي بضع دقائق أوضحت له الأساسيات وقمت بتسجيل بياناته، ومن ثم تركته يلعب. في البداية كان يرتكب الكثير من الأخطاء، شيئا فشيئا تحسن أسلوبه، تركته واستلقيت على الفراش أفكر ولكن النعاس غلبني فنمت دون أشعر.

استيقظت فزعا من صوته وهو يصرخ:

ـ لقد نجحت، فعلتها.

لقد تجاوز المرحلة الأولى بنجاح، فيقترب مني قائلاً:

ـ إنها لعبة ممتعة للغاية، كيف يمكنني البدء في المرحلة الثانية.

نظرت إلى الساعة فإذا بها الواحدة بعد منتصف الليل، مما دعاني لكي أقول بحرج:

ـ سيدي لقد تأخر الوقت كثيرا، دعنا نكمل غدا.

ينظر إلى الساعة في هاتفه فيتفاجأ ويجد رسالة جديدة يقول:

ـ إنها اللعبة ترحب بي وفي الرسالة...

يصمت قليلاً ثم ينظر إلي قائلاً:

ـ في الرسالة تهنئة بخروجي من المشفى! كيف علمت اللعبة أني كنت هناك؟ وكيف علمت برقم هاتفي؟

ـ هذه ليست المرة الأولى التي يصدر منها مثل هذه الأفعال الغامضة، لقد أخبرتني بأسرار كان يخفيها أبي وأمي عني، لا أعلم أنّى لها هذا.

ـ هل يمكن أن تكون أداة للقرصنة وما إلى ذلك كما يتردد في الصحف والمجلات؟

ـ لا أدري وإن كنت أجد أنها تدعو للتساؤل، فهي تتخطى مجرد القرصنة، إنها تتعدى حدود اللعبة وتخبرك بأسرار لا يعلمها الكثيرون.

بدا على وجهه الانزعاج ليقول:

ـ كيف يمكن إيقافها؟

حاولت أن أغلقها ولكنها لم تستجب، لتكتب رسالة على شاشة الحاسوب مفادها:

ـ للخروج من اللعبة عليك أن تنجح في سبر أغوار نفسك وتتخطى العقبات لتحظى بالمكافأة.

لم نفهم ماذا تقصد بالرسالة ولكنني أطفأت الحاسوب من زر الطاقة لينتهي كل شيء.

في الصباح أيقظني المعلم لأذهب إلى المدرسة:

ـ "كريم" هيا انهض، لقد أعددت الإفطار.

لم أكن نشيطا كعادتي فقلت له:

ـ لا أريد! أريد أن أنام.

ـ هيا أيها البطل، لقد حان وقت الاستيقاظ.

فأنهض متثاقلا وأتناول طعام الإفطار ومن ثم أرتدي ملابسي ونستقل الحافلة معا في طريقنا إلى المدرسة. يستقبل "علام" رسالة على هاتفه، ليقوم بقراءتها فيتغير لون وجهه إلى الحمرة ويقول:

ـ يجب أن نعود أدراجنا.

ويصرخ في السائق هاتفا:

ـ قف أيها السائق! يجب أن أعود، قف أرجوك.

فيوقف السائق الحافلة ويهرع ليستقل سيارة أجرة فألحق به بالكاد، وتنطلق السيارة إلى حي المروج حيث أخبر السائق بالوجهة، وكأنه يراني لأول مرة فيقول "علام":

ـ "كريم"! ما الذي أتى بك؟

ـ لقد لحقت بك وأنا لا أدري إلى أين تذهب.

بفضول سألته:

ـ لماذا تريد الذهاب إلى حي المروج؟

وكأني مسست وترا حساسا فيه، فيقول:

ـ خطيبتي هناك.

ـ أهي رسالة من رقم مجهول؟

ـ وما أدراك؟

ـ ألم أقل لك أن هذا ما حدث لي.

ـ بالفعل كانت رسالة من رقم مجهول تخبرني أن زواج "ريهام" سيتم اليوم.

ـ من "ريهام"؟

ـ إنها معشوقتي.

ـ ولكنها ستتزوج من شخص آخر.

ـ سأوقف هذه الزيجة.

ـ ولكن كيف؟

ـ لا أعلم، ولكن لن أعدم الوسيلة.

وتصل السيارة إلى منزل "ريهام" ويهرع "علام" إلى البيت ويطرق الباب بقوة ولكن ما من مجيب!

أقول:

ـ لعلهم غادروا.

ينظر إليّ وهو مغتاظ بشدة ويقول:

ـ أنا متأكد أنهم بالداخل ولكنهم لا يريدون فتح الباب.

وقفنا حوالي الساعة أمام الباب، تارة يطرقه وتارة أخرى يحاول مكالمتها عبر الهاتف، ولا إجابة.

أصابني الضجر فسألته:

ـ وماذا بعد؟ ماذا ستفعل الآن؟

يقول وهو يوشك أن يبكي:

ـ سأقاتل من أجل حبي، لن أستسلم.

ـ لا أدري ولكن مما أراه أنها لا ترغب بك ولا أعلم أمن الحكمة أن تهلك نفسك في سبيل حب من طرف وحيد.

ـ ماذا تقصد؟ هل تريدني أن ألقي بقلبي خلف ظهري وأمضي بلا قلب؟

ـ أقول أنك يجب أن تمضي قُدُما وتنسى أمرها تماما.

يصمت قليلاً ثم يقول:

ـ معك حق! إنني أقاتل من أجل قضية خاسرة، هيا بنا لنلحق بالمدرسة.

فرحت بهذا القرار المفاجئ وبالفعل سرنا متجهين لأقرب محطة حافلات ولكن القدر يلقي بظلاله على مصائرنا جميعا، وجدت "علام" قد تسمر مكانه وهو ينظر إلى مجموعة من الشباب يضحكون ويلقون بالنكات وعلى مقربة منهم فتاة تسرع الخطى لتبتعد عنهم ولكنهم تبعوها، وبدأت المطاردة، ولكن "علام" كان المنقذ الذي ذهب ليحدثها قائلاً:

ـ "ريهام" أين أنت؟ ولِمَ لا تجيبي على اتصالاتي؟

فتقدمت باتجاهه مسرعة وتقول:

ـ أنا آسفة لقد كنت حمقاء.

عندما ظهر "علام" وتبعته "ريهام"، تفرق الشباب وابتعدوا عنها.

فيقول "علام":

ـ لقد تملكني اليأس وظننت أنك ذهبت بلا رجعة.

فترد عليه بقولها:

ـ لقد أخطأت سامحني أرجوك.

ـ لا تثريب عليك، أنا كنت متأكدا أن حبي سيقف حائلا منيعا دون كل الظروف.

ـ هلم بنا لنعود إلى البيت.

فنسير سويا إلى بيتها فتفتح الباب وتدخلنا، وأخيرا لاحظت وجودي، فتقول:

ـ أنا أعرفك، أنت طالب في المدرسة، أليس كذلك؟

ـ أجل.

ـ وما الذي أتى بك إلى هنا مع "علام"؟

فيقول "علام":

ـ هذه قصة طويلة سأقصها عليك فيما بعد. أين أبوك؟

ـ إنه في العمل، واصطحب أمي معه ليحضرا بعض الأشياء الخاصة بالبيت.

ـ هل بالفعل كنت ستتزوجين اليوم؟

ـ أجل ولكني اكتشفت أن الرجل الذي كنت سأتزوجه لا يريدني لذاتي، بل يطمع في أن يستحوذ على مال أبي، أدركت ذلك من كثرة أسئلته عن ممتلكاتنا ومقدار أموالنا، إنه كان مهتم بأبي أكثر من اهتمامه بي، أمعنت التفكير ووجدت نفسي راغبة عنه، وبالرغم من ذلك فأبي يميل إليه ويجده صهرا مناسبا، أما أنا فقد زهدت فيه وأعلنت ذلك لأبي الذي رضخ لرغبتي وأوقفنا الزيجة.

تنظر إلى علام بأسف قائلة:

ـ أدركت الآن أن حبك لي لا يوجد له مثيل، أعتذر منك يا "علام".

بعينين تغرورق بالدموع يقول "علام":

ـ حبيبتي لا داع للاعتذار، لقد جعلت قلبي ملكك للأبد.

تقول وقد تهللت أساريرها:

ـ لتمكثا معي اليوم أنت وهو حتى نتناول طعام الغداء سويا وتقابل أبي وأمي، سيسران بعودتك مرة أخرى.

فينظر "علام" لساعته، إنها العاشرة، فيقول لها:

ـ لقد تأخرت كثيرا ومدير المدرسة يتوعدني باستمرار عند تأخري، سأكلمك اليوم بعد المدرسة.

ـ حسنا كما تريد.

ونغادر المنزل و"علام" متلهف للرجوع في أقرب وقت.

ـ لعبتك هذه يا "كريم" مثيرة للتساؤل ولكن لا أخفيك القول لقد أتت بفائدة، من أين جئت بها؟

ـ من متجر للألعاب.

ـ ما رأيك بأن نتقصى حول مصممها والشركة التي أنتجتها؟ فبالأمس حاولت أن أجد معلومات حولها ولكن بلا جدوى.

ـ فكرة جيدة يا أستاذ. فهي بالفعل تثير الحيرة.

ـ لنذهب للمتجر بعد الانتهاء من المدرسة مباشرة.

ـ كما تريد.

وبالفعل توجهنا إلى المتجر بعد انتهاء الحصص الدراسية، ولكن وجدنا المتجر مغلق ومعلق على بابه لافتة مكتوب عليها "مغلق للتحسينات"، أصابنا بعض الإحباط. فيسألني المعلم قائلاً:

- ما العمل الآن؟

بحثت بنظري فيما حولي أملاً في أن أجد ما يساعدنا في الوصول إلى بعض المعلومات حول هذه اللعبة العجيبة.

يبادرني "علام" بسؤاله:

- ألا تعلم لصاحب المتجر رقما لهاتفه؟

- لا للأسف.

حاولت معرفة أية معلومة من المتاجر المجاورة، ولكن كل من سألتهم أجمعوا

أنهم لا يعلمون عنه شيئا. فهذا المتجر يعد جديدا وصاحبه لم يعطي رقم هاتفه لأحد. فقلت مفكراً:

- وكأنها أتت اللعبة من اللامكان.

- هيا بنا نعود أدراجنا.

وانطلقنا عائدين لنبدأ فصلا جديدا في اللعبة العجيبة.

***

الفصل السابع

المسابقة

"مدينة جديدة وأناس جدد"، هكذا قلت في نفسي وأنا أسير بغير هدى، "أنا الآن مطارد من قبل الشرطة بتهمتين ليس لي يد فيهما، ولم أتعمد أن أؤذي أحد"، أثار انتباهي تجمع من الناس حول أحد الدكاكين، فاقتربت متسائلا عن كنه هذا التجمع، وبشق الأنفس استطعت أن أخترق الجموع لأجد رجل يقف وهو يقول:

ـ شخص واحد فقط هو الذي سأختاره وهو الذي سيحصل على الثروة والمال الوفير، هذا الشخص سيرحل معي إلى القصر حيث سيمكث مع المتسابقين الآخرين، يجب أن يتحلى بالأخلاق والمثل العليا، وقادر على تخطي الصعاب، وذو بنية رياضية.

بحث بنظره بين الجموع ليستقر ببصره عليّ فيوجه بنانه باتجاهي ويستطرد:

ـ أنت! ما اسمك؟

فأجبته بتلقائية:

ـ "هيثم" يا سيدي.

ـ هل ترغب في المال والشهرة يا "هيثم"؟

ـ بالطبع يا سيدي.

ـ إذا أمهر هذه الورقة بتوقيعك، لقد فتحت لك أبواب المجد.

لقد كانت ورقة مدون فيها بخط صغير الكثير من الكلمات، فسألته:

ـ ما هذه الورقة يا سيدي؟

ليبتسم الرجل ابتسامة سمجة ويقول:

ـ إنها تعهد منك أنك لن تتركنا إلا بعد ستة أشهر.

ـ لا بأس أنا ليس لي مكان لأذهب إليه.

كنت يائسا فوضعت توقيعي على الورقة، فيقول الرجل:

ـ هيا بنا لنذهب.

تتعالى صيحات الجمهور رغبة منهم أن يتم اختيارهم، ولكن الرجل تأبط ذراعي وسرنا إلى سيارة لتنطلق بنا إلى المجهول.

كان قصرا مهيبا بحق، لم تفارق عيناي تفاصيله الرائعة. تسمرت في مكاني لثوانٍ فيقول الرجل:

- هلم يا "هيثم"! دعنا ندخل.

فأسرعت معه إلى داخل القصر الغامض. أشار إليّ بالانتظار في بهو وسيع ورحل، كان هناك أربعة متسابقين آخرين قابلوني بشيء من التكبر والاستعلاء. شعرت بحرارة المنافسة بالرغم من أني لا أعلم بالضبط علام نتنافس، لم ألبث إلا دقائق لتستقبلني سيدة بترحاب قائلة:

ـ "هيثم" أليس كذلك؟

ليومئ برأسه فتقول:

ـ مرحبا بك في مقر شركتنا، أنا "رجاء" مساعدة المدير وأنا المسئولة عن تلبية رغباتكم ومتابعة أحوالكم الصحية والنفسية خلال مكوثكم هنا. نحن ما زلنا شركة واعدة نقوم بتصميم ألعاب الحاسوب وحاليا نعكف على تطوير لعبة جديدة أطلقنا عليها اسم "رفات الشقاء"، هذه اللعبة مميزة للغاية حيث يخوض اللاعب مراحل مختلفة وتتفاوت درجات الصعوبة تبعا لمهارة اللاعب، نعد مفاجآت للاعبينا مدهشة، نتوقع أن تلقى استحسانهم، يأتي دوركم في تجربة اللعبة قبل إصدارها والرابح منكم سيحصل على مكافأة قيمة.

ـ ولكني لست ملما بالألعاب الإلكترونية، فأنا لم أمارسها منذ صغري.

ـ هذا لا يهم فما سنطلبه منك لا يتعلق بمهارتك في الألعاب ولكن يرتبط بذكائك وحسن تصرفك، سأساعدك لا تقلق. هيا بنا لأعرفك بالمتسابقين الآخرين.

نسير سويا باتجاه الحضور قائلة وهي تعرفهم بي:

ـ هذا "أدهم"، رجل أعمال قديم وهو في الشركة منذ عامين وهو يعد الأقدم بين المتسابقين.

نظرت إليه نظرة متفحصة، كان جسيما قوي البنيان في الأربعينات من عمره، بدا وكأنه يعتني بلياقته بشكل ملحوظ، شعرت بكلابتين حديديتين تعتصران يدي حين صافحته.

ـ وهذا "هشام" بطل سابق في رياضة المصارعة، انضم إلينا مؤخرا وكان يعمل مبرمجا لتطبيقات الحاسوب.

كان أقصر من سابقه ولكنه متين البنية ويبدو أكثر ودا، شعرت بالارتياح لوجوده وخالجني شعور أنه سيكون صديقا حميما.

ـ أما هذا فيدعى "رامي" وهو معلم رياضيات.

كان "رامي" شابا في مثل عمري تقريبا ويرتدي نظارة طبية سميكة إلى حد ما.

ـ وبطل النسخة السابقة "مهند".

نظر "مهند" إليّ بنظرة متفحصة من أخمص قدمي حتى أعلى رأسي ثم يبتسم ويقول:

ـ أنت رياضي، أليس كذلك؟

ـ أنا معلم سباحة.

ـ هذا واضح من مظهرك، ولكنك لن تتخطاني ولن أسمح لك، فليكن هذا في حسبانك.

لم أجبه، رأيت فيه الغرور، وجعلني ذلك أكثر حرصا على أن ألحق به هزيمة نكراء.

ـ وأخيرا "صلاح" هو مستجد مثلك، انضم إلينا بالأمس فقط.

بدا الارتباك على وجه "صلاح" الذي بدا وكأنه لم ينسجم بعد مع البقية، فيقول:

ـ أهلا بك يا "هيثم"، أتمنى لك التوفيق.

ـ شكرا لك يا "صلاح"، وأنا كذلك.

وبعدها قامت "رجاء" باصطحابي في جولة في المكان، المكان مجهز بشكل أكثر من رائع، يبدو أن الحظ ابتسم أخيرا لي، حيث صالات الألعاب، وغرف الإقامة، وأماكن الترفيه متمثلة في قاعات للألعاب الإلكترونية، وقاعة لتناول الطعام ذاخرة بالطاولات وفيها ما لذ وطاب من الطعام.

تقول "رجاء" وقد وقفنا عند باب أحد الغرف:

ـ هذه غرفتك. سأتركك لتستريح ومن ثم سنخبركم جميعا بما سوف تضطلعون به.

الغرفة كانت مجهزة بسريرين وبدا أن أحدهما شاغر والآخر لأحد المتسابقين. وهناك التلفاز المعلق على الجدار، ومكتبين وكرسيين ومكتبة فيها بعض الكتب، وطاولة صغيرة عليها هاتف. استلقيت على ظهري على

الفراش ناظرا إلى سقف الغرفة أفكر فيما حدث لي حتى الآن، ولكن ما شغلني أكثر هو هذه المسابقة، "رفات الشقاء"! اسم عجيب وله مدلول يوحي بالصعوبة، ولكني سأخوض غمار المسابقة حتى النهاية. وجعلني ذلك اتساءل كم مقدار الجائزة المرصودة للفائز؟

ـ لا تفكر كثيرا! سيتم استبعادك من البداية.

كان هذا "هشام"، أنه شريك غرفتي، وأتى ليرتب أغراضه ويضعها في حقيبة كبيرة.

ـ لماذا تقول ذلك؟

ـ هذا ما سوف يحدث، لقد حدث مع غيرك مرارا وتكرارا.

ـ هل شاركت في هذه المسابقة من قبل؟

ـ لا لم أفعل ولكني قمت بالبحث في الأمر ووجدت أن فرص المتسابقين الجدد ضئيلة للغاية، لذا أنا أعد حقيبتي استعدادا للرحيل.

ـ ما طبيعة تلك المسابقة؟ هل لديك فكرة؟

ـ هي تحدي لقدرتك على الصمود والبقاء وخلال مراحل مختلفة ستحظى بالنقاط إذا نجحت في تخطي العقبات، بيد أن الكل يسعون لهدف واحد هو الأسمى في المسابقة، أن يجدوا خط النهاية، من يصل أولا يكون هو الرابح.

ـ إذا سأبحث عن هذا الخط.

يبتسم "هشام" ويقول:

ـ ليت الأمر بهذه السهولة، عليك أن تتجاوز كل مرحلة لتقترب أكثر وأكثر من خط النهاية، لم يصل أحد لهذا الخط إلا بعد تجاوز المراحل واحدة تلو الأخرى.

ـ إذا لنفعل هذا معًا.

كانت فكرة لم تخطر على مخيلة "هشام"، ماذا لو تعاونا معا سيتخطيان هذه التحديات وهذا سيجعل من المهمة شيئا أيسر.

فيقول بحماسة:

ـ فكرة رائعة، أنا موافق.

حينها يرن جرس الهاتف، فيلتقطه "هشام" الذي يستمع للمتصل، فيقول:

ـ هيا بنا لقد طلبوا حضورنا للاجتماع الذي سيعقد بعد قليل.

تبعت "هشام" إلى غرفة الاجتماعات، فيسألني:

ـ أين أغراضك وملابسك، لِمَ لم تحضرهم معك؟

فأجبت بارتباك:

ـ أ... الحقيقة أنني ... لقد قمت بتوقيع العقد وأتيت إلى هنا مباشرة ولم أتجه إلى منزلي الذي هو على بعد أميال من هنا.

ـ أنت محظوظ فلا حاجة لك بهم سوف تأخذ الزي الخاص بالشركة، كما أننا نحصل على وجبات طعام على مدار الساعة، وهناك مرتب شهري نظير مكوثنا في القصر هذه الفترة.

ـ هذا شيء جميل، فأنا في حاجة ماسة لهذا المال.

وصلنا إلى الغرفة وقد جلس كل من "أدهم" و"صلاح" و"رامي" و"رجاء" وهناك رجلان لم أرهما قبلا، فتقول "رجاء":

ـ وها هما "هيثم" و"هشام"، انضما إلينا هيا، تفضلا بالجلوس.

فجلسنا وقد اعترانا بعض الارتباك.

استطردت قائلة:

ـ هذان السيدان هما السيد "كمال" والسيد "وجيه"، السيد "كمال" هو المدير التنفيذي للشركة والسيد "وجيه" هو مدير قسم الموارد البشرية. سنوضح لكم خلال اجتماعنا هذا النقاط الأساسية في المسابقة، سأدع الكلمة للسيد "كمال".

يقف "كمال" وبجواره حاسوب يعرض من خلاله صورا توضيحية، وخلال الساعة التالية قام كلا من "كمال" و"وجيه" بعرض نشاط الشركة والذي يدور حول تصميم الألعاب الإلكترونية ولعبتهم الأساسية هي "رفات الشقاء"، والتي تعتمد بشكل أساسي على ما سوف يقوم به اللاعبون على أرض الواقع، وعرضا مكافأة مالية كبيرة تسيل لها لعاب الكل لمن ينجح منا في الانتهاء من المهام المعدة لكل متسابق، وفي نهاية الجلسة تناولت "رجاء" المهمة الأولى بالشرح فتقول:

ـ الأسرار! هذا هو موضوع المهمة الأولى، سيتم تعيين أشخاص محددين لكل منكم، وستقومون بنبش ماضيهم والتعمق في البحث لمعرفة أعمق أسرارهم وأكثرها غموضا.

وفي يدها بطاقات ورقية تقوم بتوزيعها علينا، نظرت إلى بطاقتي لأجد اسما مكتوب فيها وهو "كريم صابر" ومدون عنوانه، نظرت "لهشام" الذي كان يتمعن في بطاقته وتتلاقى الأعين ليبتسم الأخير، يقترب "صلاح" مني ليقول:

ـ ما الاسم الذي دُوّن في بطاقتك؟

لتستطرد "رجاء" قائلة:

ـ الأسماء التي لديكم تخص أشخاصا حقيقيين، أرجو أن تحافظوا على سرية هذه الأسماء ولا تبوحوا بها لأحد على الإطلاق.

فنظرت "لصلاح" نظرة مفادها أسمعت؟ وأردفت قائلة:

ـ الفائز في هذه المرحلة من يستطيع أن يحصل على أكبر عدد من الأسرار وأكثرها تأثيرا، يمكنكم البدء من الغد وأمد المرحلة سبعة أيام بعدما ننهي بعض التدريبات الخاصة بكم.

تنتقل ببصرها إلى أوجه المتسابقين وتقول:

ـ هل لدى أحدكم أي سؤال؟

فيقول "أدهم" متسائلا:

ـ أين "مهند"؟

تجيبه "رجاء" قائلة:

ـ بما أنه المصنف الأول فله الحرية في قبول المهمة الأولى أو البدء من المهمة الثانية مباشرة، طبقا لقواعد المسابقة، ولقد اختار أن يبدأ من المهمة

الثانية.

يشبك "أدهم" ذراعيه ويدير وجهه ليُظهر عدم رضاه عن هذا الذي يحدث مع "مهند".

ـ سيدتي! من سيقوم بتقييم ما نحصل عليه من أسرار؟ وكيف نقوم بتوثيقها؟

يقولها "رامي".

تبتسم "رجاء" قائلة:

ـ هذا السؤال في محله.

وتشير بيدها إلى كومة من الحقائب عند أحد أركان الغرفة وتقول:

ـ جهزنا لكل واحد منكم حقيبة محملة بأحدث التقنيات المعلوماتية لتمكنكم من رصد وتسجيل وحفظ كل ما تقومون به ومن جهتنا يمكننا أن نتابع النتائج، وخلال اليومين القادمين سنقوم بتعليمكم كيفية استخدام المعدات، هيا كل منكم يأخذ حقيبة.

"إنه تحد جديد، عليّ أن أتقن استخدام تلك الأجهزة الجديدة" هكذا قلت لنفسي. في خلال اليومين التاليين أتقنت التعامل مع تلك الأجهزة وأظهرت نبوغا في كيفية توظيفهم التوظيف الأمثل. كان "كريم" هذا اليافع المدلل، أبوه ثري ويلبي له كل ما يريد. قمت باختراق الكاميرات الأمنية المثبتة في كل أرجاء البيت. واطلعت على أسرار البيت وخباياه. علمت عن السر الذي يخفيه كل من الأب والأم. إنهما على وشك الانفصال لوجود علاقة غير

شرعية بين الأم وأحد أصدقاء الأب. علمت ذلك عندما قمت باختراق هاتف الأم والتنصت على ممتلكاتها ورسائلها، وكذلك على هاتف الأب الخلوي.

وكما تعلمت، قمت بتسجيل كل هذه المعلومات والأسرار على جهاز يشبه الحاسوب، ولكنه لا يحتوي على لوحة مفاتيح بل كان أقرب للحاسوب اللوحي.

ظهرت نتيجة المرحلة الأولى والتي كان تفوقي فيها تفوقا ملحوظا على بقية المتسابقين. فقد عقدت "رجاء" اجتماعا جديدا معنا نحن المتسابقون وأطلعتنا على النتيجة.

- المتابعة وتطوير الآداء.

هكذا قالت "رجاء" في ذلك الاجتماع، الكل كان حضور ومنتبه لما تقوله، فتستطرد قائلة:

- هذه هي المرحلة الثانية من المسابقة والتي يترتب عليها، تقريبا، كل شيء. المطلوب منكم متابعة اللاعب وجعله يطور أداءه سواء في اللعبة أو في الواقع. من المفترض أن اللاعب، أو اللاعبة، يستغرق في اللعب ولا يفارق حاسوبه. نحن نطمع أن يصل عدد ساعات اللعب في اليوم أكثر من عشر ساعات. وهذا هو مقياس تفوقكم. بالأدوات التي تملكونها والمعلومات التي حصلتم عليها أصبحتم قادرين على دفع اللاعب إلى اللعبة دفعا، سواء بالمكافآت أو بالعقوبات. لكم أن تمدوا اللاعب بالحافز، ساعدوهم إن أردتم أو افضحوا أسرارهم ليتعلموا أنهم ليسوا أحرارا بعد الآن. وبمكوثهم في اللعبة يجب توجيههم لشراء أدوات المساعدة ليتخطوا المراحل المختلفة.

ومدفوعات اللاعبين لكم فيها نسبة كحافز مادي وأيضًا في النقاط التي ستجنوها من احتساب وقت اللعب.

- هل هذا قانوني؟

قالها "هشام" والارتباك يغشاه، ليبتسم الحضور وعلى رأسهم "نجاة" التي قالت ببرود:

- نعم قانوني! لقد وافق اللاعبون على كل ما أخبرتكم به قبل البدء باللعب كشرط أساسي للخوض في مغامراتهم.

فقلت متعجبًا:

- وافقوا على أن نكشف أسرارهم ونتلاعب بمقدراتهم ومستقبلهم.

أجابت قائلة:

- أجل! كل شيء قانوني تماما، لا أريدكم أن تعبأوا بمثل هذه التفاصيل البسيطة. قوموا بمهامكم واستعدوا للأصعب.

لذا قمت بإخبار "كريم" عن السر الذي أخفاه أبواه عنه برسالة عبر هاتفه. ووضعته تحت المراقبة اللصيقة. لقد كان لاعبا ماهرا بحق. واستطاع اجتياز المراحل بسهولة بالغة. ولكن القادم لن يكون سهلاً!.. أبدًا!

***

الفصل الثامن

الإذعان

ـ يا له من مسكين، هذا المريض بلا أسرة تعتني به.

هكذا قلت في نفسي حينما كنت أعاين حالة هذا المريض الذي أصابته وعكة مفاجئة، ووجدت أنه وحيد تماما، لم يأتي أحد ليرعاه في حالته تلك. كانت سعادتي غامرة حين أفاق وتحسنت ظروفه الصحية ونهض من رقدته.

ـ أتشعر بتحسن؟

سألته حينها وقد شعرت بالقلق قليلاً حياله.

ـ نعم يا سيدتي، أنا أفضل كثيرا الآن. أنا شديد الامتنان لما قمتم به لإسعافي.

ـ لا شكر على واجب.

ـ أنا مدين لك يا طبيبة "مروة".

قالها وهو يقرأ الاسم على بطاقة التعريف المعلقة على نحري. أدركت أنه عرف اسمي من البطاقة فابتسمت، وقرأت بدوري اسمه من على ملفه المرضي قائلة:

ـ هذا عملي يا أستاذ "علام".

قمت بفحصه والتأكد من مستوى ضغط دمه، لقد تحسن كثيرا مقارنة بالساعات الفائتة. سجلت بعض الملحوظات في ملفه.

ليسألني بهدوء:

- كيف أنا الآن؟

- أنت على ما يرام. يمكنك الخروج من هنا، وإن كنت أفضل مكوثك لبعض الوقت.

- كما ترين يا سيدتي.

تركته وغادرت. لا أدري لماذا ظل يراودني الأستاذ "علام" في أحلام اليقظة، وانشغل تفكيري به كثيرا، حتى في وقت الاستراحة لم يفارق مخيلتي، إنه يشبه كثيرا "وفيق" ولكنه أكثر لطفا، أدركت أني أبالغ كثيرا في استغراقي في التفكير به، فأنا لا أعلم شيئا عنه سوى اسمه ومهنته وعنوانه. عاتبت نفسي كوني اطلعت على تلك المعلومات عنه، كيف لي أن أسترق النظر في ملفه هكذا؟ هذا ليس من شيمي ولكنه أثار شغفي لكي أعرف، فضولي جعلني أذهب إليه لأسامره قليلاً في وقت راحتي، لكني وجدته قد غادر. شعرت بالخجل من نفسي أن أصبح كالفتاة المراهقة. عدت إلى غرفة الاستراحة لأجد أحد الأطباء يتحدث بصوت مرتفع:

- حتى أبسط الأمور أظنهم يعرفونها، ولولا هم ما استطعت المجيء اليوم، لقد كانت نازلة عظيمة على جيراني فقد خسروا كل شيء، أما أنا، فالحمد لله، أدركت ما سوف يحدث فتداركت الأمر.

- أنت محظوظ بحق، كان بالإمكان أن تخسر كل استثمارك كما حدث لجيرانك هؤلاء، كيف هو أداؤك في هذه اللعبة؟

- أنا في مستوى متقدم وكـ...

"يا لهؤلاء الرجال! هذا التفكير السطحي هو ما يشغل بالهم، لعبة هي ما يتحدثون عنها!" هكذا كنت أفكر.

- وماذا عنك يا "مروة" ألم تسمعي بها؟

انتبهت إليه حين ذكر اسمي فقطع عني أحبال أفكاري، ابتسمت ابتسامة وجلة وأجبته:

- أستميحك عذرا، لا أدري فيما كنتم تتناقشون.

ليقول بحماسة:

- إنها لعبة إلكترونية جديدة تدعى "رفات الشقاء"، فيها تخوضين غمار مغامرة مدهشة، تتحدى ذكائك وقدرتك على تخطي العقبات المختلفة.

بارتباك قلت:

- في الواقع.. أنا لست من هواة الألعاب الإلكترونية.

- ولكن هذه اللعبة ليست كأي لعبة، فهي تحوي ما يشدك من هذا الواقع إلى واقع بديل، هيا جربيها ستندهشين مما تجدينه فيها.

وأخرج قرصا مضغوطا من حقيبته وأعطاني إياه، تناولته ومن ثم قلبته بيدي لأجد ملخصا مكتوبا على الغلاف الخارجي وفيه:

" هذه ليست كأي مغامرة خضتها من قبل، نعدك بتجربة مذهلة تنافي كل قواعد المنطق، انضم إلينا وجهز نفسك لمنافسة تحبس الأنفاس".

أثارت الكلمات فضولي لكي أقوم بتجربتها فنظرت إلى الطبيب الذي منحني القرص قائلة:

ـ تبدو شيقة، لا بأس، يمكنني لعبها.

ـ هكذا هي الحماسة.

***

عدت إلى المنزل مبكرا لأجد "مروان" بالبيت يجلس وأمامه "وفاء" يتسامران، بش "مروان" لرؤيتي فقال:

ـ أهلا "مروة" كيف حالك يا طبيبتنا العظيمة؟ وكيف كان عملك؟

ـ أهلا يا "مروان"، سعيدة برؤيتك، أنا بخير والحمد لله، وعملي على خير ما يرام.

ونظرت إلى "وفاء" قائلة:

ـ ماذا عنك يا حبيبتي؟ هل أنهيت عملك مبكرا اليوم؟

ـ أجل، لقد غادرت لأنهي أعمال المنزل مع أمي.

ـ حسنا يا عزيزتي، سأترككما لشأنيكما.

وغادرت ولكن "وفاء" أوقفتني بقولها:

- "مروة" أبي يريدك، إنه يرغب في أن يخبرك شيئا.

- أين هو الآن؟

- إنه يقرأ في المكتبة.

توجهت للغرفة لأجد أبي جالسا يقرأ كتابه المفضل، انتبه إلى وجودي فوضع الكتاب جانبا واستقبلني بترحاب كالعادة قائلاً:

- حمدا لله على سلامتك يا بنيتي.

هرعت لأستلم يده وأقبل ظاهرها قائلة:

- سلمك الله يا أبي الغالي، اشتقت لك أيها الوسيم.

- يا لك من مخادعة، لقد ذهبت الوسامة أدراج الشيب.

- أي شيب هذا وأنت في عنفوان شبابك.

فيُقَبِّلُني ويضحك ثم يقول:

- دعك من هذا المزاح، كنت أريدك في شيء هام.

قلت في جدية:

- خيرا يا أبي، وما هذا الأمر الهام؟

- زواجك يا ابنتي؛ لقد كلمني اليوم "مهاب" للمرة الثالثة وينتظر مني رد، فماذا قلت يا مهجتي؟

عقدت حاجباي، وأظن أن لون وجهي تغير وقلت:

ـ أجده رجلا غير جدير، إنه أكبر مني بعشرين سنة، فماذا أصنع به؟

ـ لقد أفصح لي أنه يحبك حبا جما، وسيعطيك المهر بالقدر الذي ترغبين.

ـ لا رغبة لي بماله، فأنا لست مغرمة بالنقود. أبي من أريده زوجا لي يجب أن يغزو قلبي بشخصيته، برجولته الحقة، بكلمته الرقيقة والصارمة في آن واحد، يجب أن يشبع عقلي بفكره؛ لا أريد زوجا كثير المال، ضيق الأفق، ولا يملأ حياتي بحياته.

ـ ولكن يا ابنتي يتقدم العمر بك وتتأخرين أكثر فأكثر في الارتباط وأخشى أن يفوتك قطار الزواج؛ يجب أن تتنازلي قليلاً وإلا لن تجدي فارس أحلامك ذاك.

ـ سأجده بإذن الله يا أبي، تحلى بالصبر أسعدك الله.

ـ وددت لو أن عندي مقدار الثقة التي تملكين. كما ترغبين يا "مروة"، سأعتذر له إذا.

فوضعت قبلة على جبينه وقلت:

ـ بوركت يا أبي، سأذهب إلى غرفتي لأستبدل ملابسي وأساعد أمي في تحضير الطعام.

وبالفعل ذهبت إلى غرفتي وقمت بارتداء ملابس أخرى، ثم قمت بتجهيز الطعام مع أمي، ليجتمع الكل حول مائدة الطعام فيقول "مروان":

ـ هذا الطعام ذو مذاق رائع أحسنت طهيه يا أماه.

فتبتسم الأم وتنظر إليّ لتقول:

ـ هذا الطعام من صنع "مروة" هي التي قامت بإعداده وطبخه.

فينظر لي ويقول:

ـ سلمت يداك، أنت بارعة حقا، إنك لست طبيبة فحسب بل زوجة مثالية.

ظهر الغيظ على وجه "وفاء" التي قالت بحدة:

ـ وما المميز في طهيها، أنا أطهو أفضل منها.

فقال أبي وهو يضحك:

ـ أنتن جميعكن رائعات، وما عليكن إلا الطهي وأنا عليّ الأكل و"مروان" كذلك، ألا توافقني الرأي يا "مروان"؟

بدا على "مروان" الحرج فقال بارتباك:

ـ أجل...أجل يا سيدي.

***

فرغ الجميع من تناول الطعام. لذا استأذنتهم أن أذهب لأستريح قليلاً. وفي غرفتي أخذت أفكر في ما قاله أبي، لقد كانت الكلمات تدمي قلبي. أنا أدرك أن أبي يتحدث بما هو في صالحي، ولكن لا أرى فيمن يطلبوني للزواج الرجل الذي أتمناه، تذكرت "علام"، أنا لا أدري لِمَ يستمر في الإتيان لي في صورة ذكرى أو ابتسامة رسمها على وجهه، لا أعلم عنه إلا النذر اليسير، وها هو قد رحل تاركا إياي أتوق إلى مجالسته والتحدث معه. نظرت إلى

الساعة لأجدها قد جاوزت التاسعة مساءً، حان الوقت للخلود إلى النوم، ولكني تذكرت القرص الذي أعطاني إياه هذا الزميل، فقمت بتشغيله والبدء باللعب. لقد اندمجت في أحداث اللعبة ووجدت نفسي قد أجدتها، ليست اللعبة بهذه الصعوبة! هذا ما غلب على ظني، ولكني شعرت بالصعوبة مع تقدمي في اللعب، وتوقفت حينما شارفت الانتهاء من المرحلة الأولى، حيث واجهت لغزا يتحداني شخصيًا في أن أجد له حلا. إنها الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، يا لها من لعبة شيقة، جعلتني لا أشعر بمرور الوقت، سأكمل غدا! هذا ما أسَرّته في نفسي، واتجهت إلى فراشي وأنا منشغلة التفكير باللغز، ليعلو صوت الهاتف معلنا وصول رسالة جديدة، التقطته وألقيت نظرة خاطفة على هذه الرسالة لأجد أنها ترحب بي كلاعب جديد وتدعوني للاستمرار في تخطي العقبات، وحل اللغز الذي توقفت عنده، وسُردت في الرسالة طريقة اللعب؛ ما أثار حفيظتي في الرسالة هو الشق المتعلق بالزواج؛ ففي اللعبة، الشخصية التي اخترتها كانت فتاة مقدمة على الزواج، ويتعثر زواجها هي الأخرى. لقد كنت أخوض غمار هذه المرحلة مذعنة لقواعد اللعبة ولم أفهم أني أعيش قصتي الواقعية، في هذا الشق من الرسالة أثار ريبتي كونه يلمح إلى الزواج، شعرت أني مراقبة أو اللعبة تستشف ما في داخلي. فكرت أن أكمل حيث توقفت في اللعبة ولكن غلبني النعاس فنمت.

***

في صبيحة اليوم التالي انطلقت إلى عملي في المشفى، وحين دخولي عَلا صوت المذياع يستدعيني، فهرعت إلى الاستقبال، لتخبرني إحدى الممرضات بأن هناك مريض يطلبني بذاتي في الغرفة عشرين. وكانت

المفاجأة! لقد كان "وفيق"! كان مستلق على الفراش يتأوه، اقتربت منه لألقي نظرة عليه، فلما أبصرني ابتسم بحزن قائلاً:

ـ "مروة" أنا آسف بحق، لقد خذلتك من قبل وأنا الآن كُلّي يقين أنني فرطت في حقك.

لم أتكلم وجعلت اهتمامي منصب على ملفه المرضي، لقد أصيب بمرض السرطان في مراحله الأخيرة، لقد سألت الله أن يصيبه مرض عضال نظير ما فعله بي، ولكني لم أظن أن الله سيستجيب لي.

ـ سامحيني أرجوك، اغفري لي زلتي.

ـ حالتك مستقرة يا سيد "وفيق"، ستتلقى علاج إشعاعي وسنرى تقدم حالتك ونتابعها عن كثب.

يقول وهو يبكي:

ـ لا داعي لهذا القول، أنا أُدرك أنني قد انتهيت.

ابتسمت ابتسامة رسمية وقلت:

ـ تحلى بالإيمان يا سيد "وفيق"، رحمة الله واسعة وهو على كل شيء قدير.

ـ أنا أخاف الموت يا "مروة"، لا أريد أن أموت، ما زلت صغيرًا عليه، أرجوك افعلي ما في وسعك لإنقاذي.

ـ سأفعل لا تقلق، ستلقى عناية مميزة هنا، وسأُشرف على حالتك بنفسي.

ـ شكرًا لك.

أعدت الملف مكانه، وبمزيج من السعادة والحزن غادرت غرفته؛ رؤيته في هذه الحالة شفى غليل صدري، ولكني ما زالت الطبيبة التي تحرص على صحة مرضاها فشعرت بالحزن لأجله.

أستمر في عملي إلى أن أعياني التعب فذهبت لأستريح قليلاً وأتناول بعض الطعام، وأثناء سيري كنت أطالع بعض الأوراق، لم أكن منتبهة، لأرتطم بأحدهم، فتتطاير الأوراق وتسقط على الأرض، اعتذرت بشدة وهممت بالتقاطهم، ولكن من ارتطمت به قام بجمعهم وأعطاني إياهم، أخذتهم وحينئذ تلاقت أعيننا، إنه الطبيب الذي أعطاني اللعبة، "مراد" هذا هو اسمه، ليبتسم ابتسامة عريضة ويقول:

ـ سعيد بلقياك يا "مروة"، ما بك؟ تبدين مرهقة!

ـ لقد كان العمل اليوم مُرهقا.

ـ أنت مجدة في عملك، نحن محظوظون بوجودك معنا. هل قمت بتشغيلها؟

ـ تقصد اللعبة،

إنها رائعة! أنا أنتظر العودة للمنزل بفارغ الصبر لكي أكملها.

ـ هذا شيء ممتاز، أنا أراهن أنك ستستمتعين بها أكثر فأكثر كلما تقدمت فيها.

ـ أنا أجزم بذلك.

يصدر الهاتف رنين مؤذِنا بقدوم رسالة جديدة، فيسألني بلهفة:

ـ هل هي اللعبة؟

- لا أدري! لعلها رسالة دعائية.

- هيا تفقّديها.

قرأت الرسالة التي كانت صادمة بحق، فقلت غير مصدقة:

- هذا مستحيل!

- ماذا في الرسالة؟

- الرسالة تخبرني أن "مروان" يخون أختي.

- "مروان" من؟

- إنه من تقدم لخطبة أختي.

- إن هذا شيء خطير.

- لا أدري، أأصدّق هذه الرسالة؟

- كانت الرسائل التي تصلني تحمل في طياتها الحقيقة.

- أنا لا أصدق هذا...

لم أكمل العبارة إلا ويعلن الهاتف عن وصول رسالة جديدة، أكاد أجزم أن فزعي مما قرأت أفزع "مراد" نفسه، ليسأل وقد غشاه الجزع:

- ماذا؟ ما فحوى الرسالة؟

- إنها صورة لفتاة يُقبّلها "مروان".

- يا إلهي، ألم أخبركِ؟

هرعت عائدة إلى البيت لمواجهة هذا الأمر، ويا ليتني لم أعد!

***

الفصل التاسع

الرسالة

ـ لقد كنت أعبث فقط ولم أقصد أن يتحول الأمر إلى هذا القدر من الجدية.

كانت هذه "ريهام" وهي تتكلم خلال الهاتف معي. تسترسل بقولها:

ـ لم أكن أظن لوهلة أني سأرى فيك نفسي ولا الرجل الذي يحتويني بحبه، هل تعلم أنك لم تفارق مخيلتي بعد أن أنهيت علاقتي بك؟ واعتراني الندم شفقا وتجرعت أكواب الحرمان ألما على تركك لي، لم أعلم بأهميتك إلا حينما ارتبطت بذاك الشاب، حينها زالت الغشاوة عن عيني، وأدركت حينئذ أننا مقدران لبعضنا البعض.

تسكت قليلاً ثم تردف:

ـ أرجوك لا تؤاخذني بما فعلت وبما سببت لك من ضيق وحزن.

فقلت والسعادة تملؤني:

ـ يكفيني أنك معي الآن، وأنك لم تتخلي عني.

لتستطرد قائلة:

ـ هل سأراك في المدرسة غدًا؟

ـ بإذن الله.

ـ لقد تأخر الوقت، ونحن نتحدث قرابة الساعتين، سأخلد إلى النوم وأحلم بك يا من أشرقت حياتي بضيائه.

ـ حسنا يا حبيبتي، أراكِ غدا.

وضعت الهاتف جانبًا ليبادرني "كريم" بقوله وهو يستذكر دروسه:

ـ أنا سعيد لأجلك.

ـ شكرًا يا "كريم"، أما أنا فقلق؛ إنك لم تتكلم مع ذويك منذ ثلاثة أيام، ولا تجيب على مكالماتهم الهاتفية، يجب أن تتجاوز عن خطأ الغير، فكلنا عرضة للخطأ، ويجب علينا أن نعفو ونصفح.

ـ يبدو أنك قد ضقت ذرعا بمكوثي معك.

ـ لِمَ تقول هذا؟ فأنا أدين لك بالكثير يا "كريم"، لعلّي ضايقتك بقولي ذاك ولكن تبقى الحقيقة في أنك يجب أن تتخطى ذلك.

يلتزم الصمت "كريم"، ويميط اللثام عن صمته بعد برهة فيقول:

ـ أرجوك يا سيدي لا تحدثني عن هذا الأمر، فصدري يضيق حينما أتذكره.

ـ أنت وشأنك يا بُني. أتريد أن أساعدك بشيء في مذاكرتك؟

ـ لا يا سيدي، شكرا لك.

ـ سأقوم بمراجعة بعض الكتب استعدادا لدروس الغد.

وانشغلنا نحن الاثنان بالقراءة والاستذكار؛ وفي آن واحد يعلو صوت هاتفيّنا بالجرس، لقد كان رقم المتصل مجهول، أجبنا المُتَّصلين، لقد كانت رسالة مسجلة! تبادلنا النظرات الحائرة، يقول "كريم" عند إنهاء الاتصال:

ـ هل كان ذلك من قِبَل اللعبة؟

ـ أجل! إنها رسالة تذكير باللعبة، وأن هناك مفاجأة بانتظاري، مفاجأة لن أسر بمعرفتها. هل كان ذلك فحوى رسالتك؟

- نعم. إنها الرسالة عينها.

ـ وماذا تقول في هذا؟

ـ لا أدري.

لقد نسينا أمر هذه اللعبة ولم نقم بلعبها منذ يومين، فقلت والفضول قد غلبني:

ـ هيا لنُشَغّلها.

وبالفعل قمنا بتشغيل اللعبة لنجد رسالة، في إطار أحمر يعلوها رمز الجمجمة، قد انبثقت على الشاشة وفيها:

"لقد تأخرت في الولوج إلى اللعبة، لذا أمامك ٢٤ ساعة لتخطي الحجب، ستزداد المراحل المقبلة صعوبة، وحان وقت مواجهة اللاعبين الآخرين".

يقول "علام":

ـ ما هذه الرسالة؟ وأي حجب تقصد؟ وماذا لو لم نتخطاها خلال هذه الفترة؟

ـ أتوقع أن نوضع تحت طائلة العقوبة من هذه اللعبة.

فاجأني بقوله فسألته:

- أي عقوبة تقصد؟

- دعني أرى!

وعبر حاسبه المحمول أخذ يبحث "كريم" في الشبكة العالمية عن عقوبة اللعبة، ويجد في أحد المواقع الإلكترونية مقال يتناول اللعبة بالنقد الصريح، قرأت ما احتوته المقالة:

"تمثل هذه اللعبة تحديا كبيرا حيث أن اللاعبين يقومون بتخطي العقبات واحد تلو الآخر وأثناء ذلك تتابعهم اللعبة في الحياة الواقعية ويتمازج الواقعان الافتراضي والحقيقي ليُكَوّنا

هذا التحدي، وعبر الهاتف تصل الرسائل محملة بآخر التطورات وبالنصائح والتوجيهات التي تجعل هذا المزيج شيقا ومثيرا".

ويتناول المقال مراحل اللعبة المختلفة والمصاعب التي يواجهها اللاعب، ولم يأتي بالذكر على هذه العقوبات بشكل واضح؛ يلاحظ "كريم" في آخر المقال سطرا مكتوبا بخط صغير فيقول:

- هنا!

ويشير إلى السطر الذي كُتب فيه:

"اللعبة تفرض عقوبات نظير عدم الاستمرار في اللعب، وهذه العقوبات تختلف تبعا لطول فترة التوقف وعدم الالتزام بالقوانين"

لم تأتي المقال بشيء جديد، لذا نظر "كريم" إليّ قائلاً:

ـ لا أجد ذكرا لنوع العقوبات تلك!

ـ لعله لا يوجد عقوبات كما كنت تعتقد.

ـ بل يوجد ولكن لم يتم تحديدها.

وقبل أن ينهي "كريم" عبارته تظهر رسالة على هاتفه فيلتفت إليها، لاحظت تغير وجه "كريم" فسألته:

ـ ماذا بك؟

ـ إنه هاتفي، لقد قامت اللعبة باختراقه ومنعي من استخدامه لحين تخطي المرحلة الخامسة.

ويحاول جاهدا أن يتعامل معه ولكنه لا يستجيب كما بدا جليا. هذا جعلني أستشيط غضبا فقلت:

ـ ما هذا؟ هذه ليست لعبة! إنها قرصنة صريحة على حيواتنا، هذا لن يمر مرور الكرام، دعنا نذهب إلى المخفر لتقديم شكوى بخصوص ما حدث.

ـ في رأيي، دعنا نكمل ونتجاوز هذه المرحلة.

ـ هل هذا يعني أننا مُرَاقَبون؟

ـ ألم تدرك هذا بعد؟ بمجرد أن اشتركنا في اللعبة فكل ما نقوله ونفعله قيد المراقبة!

هرعت فأقف خلف النافذة أنظر لعلي أرصد من يراقبنا، فيستطرد "كريم":

- ألا تعي أن قيامهم بغلق هاتفي معناه أنهم يمكنهم متابعتنا عبر هواتفنا وتسجيل كل شيء صوتا وصورة؟

- يا إلهي، هيا قم يجب أن نذهب للشرطة في الحال.

- هذا ليس الحل، لن تقم الشرطة بإجراء يحمينا منهم بل بالعكس ذلك سيجعلهم ينقمون علينا وسيصبون جام غضبهم فوق رؤوسنا. فلنركز على إتمامنا للعبة، هيا أريد عونك.

ونستغرق في اللعب حتى يوشك النهار أن ينبثق من جنح الظلام، ولكننا عجزنا عن الوصول إلى الهدف، لقد ازدادت اللعبة صعوبة ولكي نجتازها وجب علينا أن نشتري معدات من متجر اللعبة، حيث يمكننا شراء ملابس وأسلحة وصناديق بها أدوات تساعدنا على تخطي المراحل الصعبة؛ قلت:

- هذه سرقة مقننة أو ابتزاز محكم، لكي نسترد أشياءنا يتوجب علينا أن نمدهم بالنقود الحقيقية، وماذا لو لم نملك هذا المقدار من المال؟ ما الحل إذا؟

- لا يوجد حل! هذا هو ديدن الألعاب، ستلعب مجانا لتعاني أو تنفق بعض المال لكي تربح.

قمنا باستخدام بطاقتي الائتمانية لشراء ما يحتاجه "كريم" ليتم هذه المرحلة. ويصرخ الأخير فرحا بنجاحه الكبير بتخطيه العقبة الأخيرة؛ وما هي إلا ثوان قلائل حتى يعود هاتفه للحياة، فتضيء شاشته ويبدأ في الاستجابة لأوامر "كريم".

فقلت:

ـ وماذا عني أنا؟ ما العقوبة الواقعة عليّ؟ هاتفي يعمل جيدا.

وقمت بتجربته، لا مشكلة!

فيقول "كريم":

ـ دعني أساعدك كما ساعدتني.

ويحاول جاهداً لكي ينهي مرحلتي أنا أيضًا .

***

تخترق أشعة الشمس طيات النافذة الخشبية لتضيء الغرفة وتنعكس أشعتها على المرآة لتسقط على وجهي. سمعت صوت "كريم" وهو يقول:

ـ هيا يا سيد "علام" إنها الساعة الثانية بعد الظهر، هيا استيقظ.

كنت أحلم، فلم أعد أفرق بين الحقيقة والخيال، يحاول "كريم" جاهدا أن يوقظني بلا جدوى. ليصيح في أذني قائلاً:

ـ "ريهام" تريدك عبر الهاتف، هيا استيقظ.

انتفضت فزعا وقمت بالتقاط الهاتف لأضعه على أذني، ولكني وجدت "كريم" يقهقه ويقول:

ـ لقد خدعتك، لقد جعلتك تستيقظ.

لقد أغضبني تصرفه ذاك، وهممت أن أبطش به، فقال:

ـ اهدأ يا سيدي، لقد تخطى الوقت الساعة الثانية، ومن المفترض أن نلحق بالمدرسة.

نظرت إلى ساعتي وأدركت أن الوقت قد تأخر، لقد استغرقنا باللعب بالأمس حتى بعد شروق الشمس، لقد تأخرت عن موعد الدروس، تذكرت للتو أني من المفترض أن أقابل "ريهام" اليوم، فغسلت وجهي ومشطت شعري وارتديت ملابسي على عجل، لأندفع باتجاه الباب وأغادر؛ تذكرت "كريم"، لقد تركته ولم أصحبه، فقلت في نفسي:

- يمكنه الذهاب لوحده إن أراد.

وصلت إلى المدرسة وقد أوشكت على غلق أبوابها، أردت اللحاق "بريهام" قبل أن تغادر، يجب أن أراها قبل أن تعود لمنزلها، وحينئذ يجب علي أن أقابل والدها وأُقَوّم الشرخ الحاصل بيننا، وأنا لا أحب المواجهات وأفضل أن أرجئها لوقت آخر؛ من بعيد رأيتها تركض باتجاهي، وبدوري اندفعت اتجاهها تاركا الدنيا بأسرها خلفي، ولكنها توقفت حين رؤيتها لي وتركض مبتعدة عني، لم أدرك الأمر حينها، ناديت عليها وهي تستمر بالابتعاد، أردت أن ألحق بها، ولكني معلم بالمدرسة ولا يصح أن أفعل ذلك مع تلميذتي، لذا التقطت هاتفي لأحدثها ولكن الاتصال يستمر في الانقطاع، أدركت أنها لا تريد أن تتلقى اتصالاتي، التفت لأرى "كريمة" تنظر لي باشمئزاز، أردت أن أفهم سر هذه النظرة، ولكنها تبتعد عني بدورها؛ تصلني رسالة عبر هاتفي، إنها هي! سعادتي كادت تصل إلى عنان السماء، ولكن ما وجدته كان كارثيا بمعنى الكلمة، لقد كانت الرسالة مرفقة بصورة قديمة لي وأنا أقبل

فتاة، هذه الصورة مزيفة، هنالك من تلاعب بصورتي وجعلني أبدو كمن يقبل هذه الفتاة، من هذا الذي أراد أن يفسد علاقتي "بريهام"؟

لم ألاحظ من الوهلة الأولى أن هناك كلمتين مكتوبتين بخط صغير أسفل الصورة، ولكني قمت بتكبير الصورة لأجد الكلمتين التي أمقتهما بشدة، "رفات الشقاء".

***

لم أحاول أن أهاتفها مرة أخرى، لن تصدقني! أنا على يقين من ذلك، ولم أجد "كريم" في المسكن، ولم أحاول حتى مهاتفته؛ لقد انتهى كل شيء بالنسبة لي، أصابتني لعنة تأبى أن تنزاح عن كاهلي، ليس لي أن أحيى كباقي البشر وأن أجد امرأة تحبني وأحبها، وكل هذا بسبب لعبة مقيتة، كان علي ألا أصير أضحوكة لطلابي مثلما أنا الآن، أنا العاشق الولهان، العابث المراهق، التافه، كلها كنايات عن كوني نكرة كما كنت أظن منذ البداية، وأنا الآن متيقن من ذلك.

من يريدني الآن؟ هذا هو الهاتف يعلن عن متصل جديد، لم أهتم أن أجيبه في البداية، ولكن مع إصرار المتصل التقطت هاتفي لأجد أنه الرقم المجهول، ترددت في أن أتركه وشأنه فلا أجيب أو أن أعرف ما الجديد، لعلهم عرف مصممو اللعبة أني لا أريد أن أتلقى اتصالاتهم لذا هم يلحون في محاولاتهم هكذا؛ الفضول غلبني لأستمع إلى رسالة صوتية وفيها:

"يمكننا تصحيح كل شيء، ونريد أن نعلمك أنها لم تكن تصلح لك، فقد كانت مشاعرها ليست ناضجة بالقدر الكافي، لا تحزن وأكمل مهامك لتجد مكافأتك في نهاية المطاف".

أهذه رسالة مواساة أو رثاء؟ أنا لا أصدقهم! هؤلاء الذين حَوّلوا لعبة إلى أداة يتحكمون بها بحيوات الناس، أنا الآن في دوامة تمرد على قواعد اللعبة، لن أستمر في هذا الهراء إلى النهاية. أنا أشعر بالاختناق، لذا توجهت إلى مكان أستنشق فيه هواء منعش خارج المسكن؛ وأثناء سيري أتى تنبيه بوصول رسالة جديدة على الهاتف، لقد مر على ولوجي للعبة اثنا عشر ساعة، وهذا إنذار بقرب وقوع عقوبة علي، نظرت للرسالة بلا مبالاة وأكملت طريقي.

***

الفصل العاشر

مظروف

ـ لعله خير!

هذا ما طرأ على ذهني وأنا أقف أمام منزلي. رأيت أبي يغادر بسيارته؛ فكرت في أن أذهب إليه وارتمي بين ذراعيه، ولكن بعد رحيله بالسيارة شعرت أنني تسرعت في اتخاذ قراري. مر أسبوع الآن وأنا بعيد عن أبي وأمي، وجدت في نفسي الحاجة لكي أقرر كيف سيكون مستقبلي ومع من سأمكث؛ نظرت إلى هاتفي الذي يأذن بوجود مكالمة جديدة، إنها أمي! والتي تصر على مهاتفتي كل يوم في مثل هذا الوقت، وأنا أتجاهل هذه الاتصالات تماما، كما فعلت الآن. وعندما هممت بالرحيل كان صوت رسالة على الهاتف، إنها من الرقم المجهول وفيها: "أن رابط أمام منزل أبيك وسترى شيئا عجبا".

فانتظرت حول الساعة، لأرى أبي وأمي وقد أتيا معا، وزلفا إلى داخل البيت، فانسلت إلى داخل المنزل، أردت أن أسمع ما الذي سيقولونه.

سمعت أمي تصرخ قائلة:

ـ أنتَ السبب! لقد جعلته يفر.

وأبي يعنفها ويقول:

ـ أنا السبب! هل أنا من خنت ثقته وأهملت واجباته من أجل نزوة؟

ـ ليست نزوة، سأتزوج "بفؤاد" فهو يحبني وأنا أحبه.

ـ وماذا عن "كريم"؟ هل سيمكث مع زوج أم؟

ـ وماذا في هذا؟ خير من أن يمكث مع زوجة أب.

ـ لا! ما تقولينه لا يطاق، وأنا الذي ظننت أنكِ تريدين الأفضل له.

ـ هذا هو الأفضل له أن يكون معي.

ـ "كريم" على مشارف البلوغ وهو يحتاج إلى أبيه ليكون له القدوة التي يحتذي بها في هذه المرحلة الحرجة.

ـ إذا هو القضاء الذي سيفصل بيننا.

ـ كما ترغبين! سأبذل الغالي والنفيس من أجله.

بدا عليها القلق من إصرار أبي فتلطفت بالكلام بقولها:

ـ لماذا تصر على أن نكون أعداء بدلا من أن نكون أصدقاء؟

ـ أي صداقة تلك بعد خدَاعك لي وخيانتك التي لا تغتفر؟

لن ينتهي هذا النقاش بما ينفعه لذا قررت أن أتدخل، فأعلنت عن نفسي قائلاً:

ـ أريد أن أكون بمفردي، سألتحق بمدرسة داخلية، ويمكنكما زيارتي بين الحين والآخر.

كان دخولي مفاجئا لهما فبُهتا وقالا بصوت واحد:

- "كريم"!

واندفع أبي ليضمني بقوة وهو يقول:

- ولدي الحبيب لقد افتقدتك بشدة.

- وأنا أيضًا يا أبي.

تفحصني أبي كأنه لأول مرة يراني، ليقول:

- أأنت بخير يا بني؟

- نعم يا أبي، أنا على خير ما يرام.

تقترب منه أمي بوجل وتريد أن تضمني ولكني ابتعدت عنها قائلاً:

- لا تقربيني!

- سامحني أرجوك يا بني، لا تفعل بي ذلك، فأنا ما زلت أمك التي أرضعتك وسهرت على راحتك، لا تقسو عليّ أكثر من هذا.

وتنهمر دموعها على وجنتيها، فيرق قلبي وأقترب منها لتضمني وهي تبكي. تنظر إلي وكأنها لا تصدق بوجودي بقربها، تسألني بلهفة قائلة:

- هل تناولت طعامك؟

- لا يا أمي لم أفعل.

فتنظر إلى "صابر" قائلة:

- هلا أحضرت بعض الطعام.

انتهيت من تناول طعامي، فيقول أبي:

ـ هل شبعت؟

ـ أجل يا والدي، الحمد لله.

وتقول أمي بقول يسبقه الحنان:

ـ كُل يا "كريم".

ـ شبعت يا أمي، لا أستطيع أن أتناول المزيد.

فيسألني أبي باهتمام:

ـ لماذا ترغب في الالتحاق بمدرسة داخلية؟

ـ بعد تفكير عميق، وجدت أن الأفضل أن أكون مستقلا في حياتي، وبالتحاقي بتلك المدرسة أستطيع أن أكون هذا الرجل الذي قد اشتد عوده وكوّن شخصية مزدانة بالخبرات.

ـ ولكني كنت أود أن ألحقك بي في عملي لتتعلم وتَخْبُر ما سوف ترثه من بعدي.

ـ أدام الله عمرك يا أبي.

تقول أمي بلهفة:

ـ إذا كان هذا ما يرغب به يا "صابر" فَلَبّه له.

ـ هذا قرارك يا "كريم" وأنا في صفك في أي قرار تتخذه.

فتفاجئنا أمي بقولها:

ـ إذا كنت تريد هذا هربًا من أن تحيا ابنا لوالدين منفصلين، فأقول لك ابقى مع أبيك ولا تحرمني من رؤيتك كلما أرغب.

نظرت لأبي الذي تهللت أساريره فقلت:

ـ إذا كان هذا قرارك يا أمي فسأنزل عند رغبتك، سأبقى مع أبي إذا.

ابتسمت الأم ابتسامة حزينة قائلة:

ـ هنيئا لك يا "صابر"! اعتني به جيدًا.

***

جلسنا جميعًا وقد هدأت النفوس ورضي أبي وأمي بما آلت إليه الأمور. ضحكنا وتذكرنا الأيام الخوالي، ونظرات أمي لا تفارق وجهي وكأنها تراني لآخر مرة. أعود بنظري إليها وفي كل مرة أجدها واجمة. بعدها غادرت أمي وبقيت مع أبي نتجاذب أطراف الحديث، ليقول:

ـ لنحضر أغراضك من مسكن معلمك.

ـ لقد أثقلت عليه حقا، إنه معلم فاضل وقد أكرمني بحسن ضيافته.

ـ سأجزل له العطاء.

ـ حقا يا أبي!

ـ بالطبع يا بني.

- إذا هيا بنا!

***

وبالقرب من منزل المعلم "علام" اقتربنا بسيارة أبي، ليوقفها على جانب الطريق والذي اكتظ بالمارة الذين تكالبوا حول شيء ما. خرجنا من السيارة لنتفقد هذا الزحام. سألت أحدهم:

- ما الذي يحدث؟

ليجيب:

- رجل سقط على قارعة الطريق مغمى عليه.

- هل أصيب المعلم "علام" بوعكة صحية مرة أخرى؟

قلتها لأبي، وهرعنا باتجاه منتصف الزحام، ولكنا وجدنا الملقى أرضا العم "سعد" حارس المدرسة وقد بدا عليه الإعياء، فتفقدته وقلت:

- إنه العم "سعد" يا أبي. هل أنت بخير يا عم "سعد"؟ أنا "كريم"، "كريم صابر".

يجد الرجل صعوبة في التقاط أنفاسه، ولكنه ابتسم لي. يسألنا بعضهم إن كنا نعرف الرجل. فأجيبهم بنعم وأخبرتهم أنه حارس المدرسة التي أدرس فيها. فنعين العم "سعد" على النهوض، ويرفع يده إتجاه مدخل المبنى الذي يقطن فيه "علام"، فيسأله أبي:

- هل تريد الذهاب إلى هناك؟

فيومئ برأسه موافقًا، ويتكئ العم "سعد" على أبي ويسيران نحو المبنى؛ ويساعدنا بعض المارة وينصرف آخرون؛ نظرت إلى أبي وهمست متسائلا عما حدث للعم "سعد":

ـ ما الذي حلّ به؟

لم يجب أبي، أظنه أنه لا يعرف.

وقفنا أمام باب مسكن المعلم "علام"، واقترب "سعد" من الباب ليطرقه بوهن، فتقدمت قائلاً:

ـ لا ترهق نفسك يا عم، سأفعلها أنا.

طرقت الباب وما من مجيب، وفي غضون ذلك سأل أبي العم "سعد":

ـ هل تشعر بتحسن؟

ليجيبه بلهجة لا تخلو من الضعف:

ـ أجل، أنا بخير.

بفضول يسأله أبي:

ـ ماذا حدث لك؟

ـ معي خطاب من مدير المدرسة موجه إلى الأستاذ "علام"، ومع ارتفاع درجة الحرارة وأشعة الشمس الحارقة شعرت بأني سوف أفقد وعيي، فجلست على قارعة الطريق، ولم أشعر بشيء إلا تجمع الناس حولي.

بدا التأثر على وجه أبي ليقول:

ـ سلمك الله من كل سوء، سأحضر لك مشروبا باردا يعيد لك رونقك.

ويهم بالذهاب، فإذا بالباب يفتح، ويظهر المعلم "علام" من خلفه، سعدت جدا لرؤيته فقلت والسعادة تملؤني:

ـ معلمي! لقد عدت إلى أبي وأمي، ألا تبارك لي.

ويقول "سعد":

ـ أستاذ "علام"، كيف حالك؟

ويخرج من سترته الخطاب ويمد به يده "العلام" قائلاً:

ـ هذا خطاب لك من مدير المدرسة.

كان الوجوم باديا على وجه المعلم "علام"، فقلت له:

ـ هل أنت بخير يا أستاذ؟

يتركنا ويعود إلى داخل مسكنه، لحقت به وأنا أريد أن أستوعب الذي حصل، فقلت:

ـ ماذا حدث؟ هل هذا بسبب اللعبة؟

ليخرج هاتفه ويُريني الرسالة التي أرسلتها "ريهام"، بادرته بقولي:

ـ لقد قاموا بتلفيق الصورة! أليس كذلك؟ يمكنك أن توضح لها الحقيقة.

فاجأني بصراخه:

- أي حقيقة؟ أن لعبة إلكترونية تتلاعب بنا وترسل بصورة ملفقة لتوقع علي عقوبة لعدم استمراري في اللعب! هل تظن أنها ستتقبل مثل هذا التبرير؟

لذا قلت منفعلاً:

- هذا غير مقبول بالمرة، أن يدمروا علاقة من أجل أن يوقعوا عقوبة كما يدّعون، ليس لهم أن يفعلوا ذلك، لابد من وقفة.

- ماذا هناك يا "كريم"؟ هل كل شيء على ما يرام؟

قالها أبي متسائلا، فأجبته:

- لقد انفصل عن خطيبته وهو يشعر الآن بالصدمة.

يقترب العم "سعد" ويقول:

- أنا آسف لك يا أستاذ "علام"، هلاّ قمت باستلام الخطاب لكي أعود أدراجي، فأنا لست على ما يرام.

ويعطيه الخطاب ويغادر.

يقترب أبي من المدرس "علام" مواسيًا:

- لا بأس يا سيد "علام"، كلنا نمر ببعض الإخفاقات بين الفينة والأخرى، وبالصبر نحظى بفرصة أفضل.

بدا أن الأستاذ يريد أن يصرخ بما يكتوي فؤاده، بحرمانه و فشله في أن يحظى برفيقة دربه، أنا أشعر به وأعلم بالذي يفكر فيه.

يفتح الخطاب ليقرأ ما فيه، يلقيه جانبا بدون أن يبدي أي انفعال، وكأنه ليس موجها له.

فيقول أبي:

ـ هيا يا "كريم" اجمع أغراضك! لنترك المعلم يرتاح.

نظرت لمعلمي ثم لأبي وقلت:

ـ اتركنا يا أبي! سأمكث مع معلمي قليلاً .

فيبادلني النظرات، ويقول لي:

ـ حسنا يا بني، كما تريد.

ويستطرد قائلاً للمعلم:

ـ سيد "علام" أنا مدين لك لما قدمته من رعاية لولدي في هذه الفترة الحرجة، لذا أرجو منك أن تتقبل مني هذا.

ويعطيه مظروفا آخر، ويرحل. يستلم الأستاذ المظروف بشيء من الجمود ويستمر في النظر إليه ولم يفتحه. أردت أن أكسر هذا الجمود فقلت:

ـ هل جاءتك رسالة جديدة من اللعبة؟

فيجيبني بلا مبالاة وهو يعطيني هاتفه:

ـ أجل! ولكني لم أقرأها ولم أهتم.

شعرت بالمصيبة وهي على وشك أن تحدث، فقلت بجزع وأنا أتصفح رسائله:

ـ لماذا لم تفعل؟ لعلها رسالة مهمة.

ليَسْوَدّ وجهي، فيبتسم الأستاذ "علام" ويقول:

ـ مصيبة جديدة! أليس كذلك؟

أجيبه والخوف يعتريني:

ـ الرسالة الأخيرة تقول إنك ستواجه خطر الموت.

يعقد حاجبيه، فلم تكن هذه الإجابة التي يتوقعها، فيسأل:

ـ ماذا؟ أهذا تهديد بالقتل؟

ـ لا أدري! هل هذه اللعبة تقتل لاعبيها كونهم لا يريدون المضي قدما في اللعب؟

فيصرخ المعلم قائلاً:

ـ اللعنة! أود أن أصل لمصممي هذه اللعبة فأمزقهم تمزيقا

سألته وأنا أنظر إلى المظروف الذي أحضره العم "سعد ":

ـ هل قرأت الرسالة من مدير المدرسة؟

ـ نعم! إنه خطاب فصلي من عملي كمدرس بالمدرسة، وهذا ما كنت أتوقعه.

ـ أنا آسف يا أستاذ.

ـ لا عليك، سأبحث عن عمل جديد.

ـ تنهال عليك المشاكل والمصائب من كل اتجاه.

ـ هذا ما اعتدت عليه.

ـ لا بأس! أظن أن أبي ترك لك بعض المال نظير مكوثي معك، سيكفيك لبعض الوقت حتى تحصل على عمل جديد، وسأبحث في أمر الخطر الذي نَوُّهوا عنه، سأتكلم مع خال لي هو شرطي وأقص عليه القصص وسآتيك بالخبر اليقين.

ـ حسنا، بالتوفيق!

ـ فماذا أنت فاعل؟

ـ سأجرب حظي في اللعبة وأتناول بعض الطعام ثم أنام قليلاً .

ـ لا تغادر حتى آتيك.

ـ لن أفعل! سأنتظر عودتك.

غادرت وأنا لا أدري أن المعلم سيتصفح هاتفه ليقرأ ما فاتته من الرسائل، ولكنه لا يجد هذه الرسالة المشؤومة، إنه ظن أني قمت بمسحها، وهذا ما لم يحدث، لقد اعتقد أن فيها شيء أرغب في أن أخفيه عنه؛ لم يستغرق كثيرا في التفكير فلقد أتت رسالة جديدة من اللعبة وفيها:

" لقد حان الوقت لتُوَدّع صديق مقرب إلى الأبد".

بعثت الرسالة في المعلم تساؤل مُلِح، فهو لا يحظى برفاهية أن يكون له صديق حميم، خطرت على باله، فبالرغم من كوني أحد تلاميذه، ولكني أقرب صديق له، لعل الرسالة السابقة لم تقصده هو بالموت ولكنها تقصدني أنا، هذا ما فكر به عندما قص علي ما حدث بعدما غادرت. لذا قال الأستاذ:

- يجب أن أنبّهه.

يقولها وهو يحاول التحدث عبر هاتفه ولكنه يأبى أن يقوم بالاتصال، هناك خطب ما في هذا الهاتف، وكأن اللعبة تمنعه من الاتصال بي. يهرع إلى الخارج ويستوقف أول مار يراه ويترجاه أن يسمح له بإجراء مكالمة ملحة، وبالفعل يوافق ولكنه يجد هاتفي مغلق أو خارج نطاق التغطية؛ يشير إلى سيارة أجرة ويركبها لينطلق بها... إلى المجهول.

***

الفصل الحادي عشر

شفير الموت

أنا على شفا الموت! هذا ما يظهر لي، من الآن وصاعدا سآخذ أقصى درجات الحيطة والحذر، أتلفت يمنة ويسرى، أرى السلم فأصعده بهدوء، تتعالى صوت أقدام تقترب شيئا فشيئا، أختبئ في أحد الأركان وأنتظر، يدخل رجل مندفعا إلى الداخل، فتتلقفه طلقات مسدسي لتوقعه قتيلا، أتفحص الجثة بحثا عن شيء ثمين، وقبل أن أتحرك أسقِط أرضًا مضرجًا بالدماء. فأصيح قائلاً:

- لقد خسرت! لا ليس مجددًا.

ينظر إلي "هشام" بشيء من اللامبالاة، وهو يمسك كتابًا ويتمدد على أريكة في وضعية الجلوس، فيبتسم ثم يقول:

- ألم أخبرك يا "هيثم"؟ لا يحظى اللاعبون الجدد بفرصة أمام من تمرسوها منذ نعومة أظفارهم.

نظرت إليه لأقول بحنق:

- وماذا عنك؟ هل ربحت في هذه اللعبة؟

يستمر في قراءة الكتاب ويجيب قائلاً:

- نعم فعلت.

انتفضت من على الكرسي الموضوع أمام الحاسوب الذي كنت ألعب بواسطته للتو وتظهر على الشاشة عبارة "لقد خسرت" وقلت وأنا لا أصدق ما سمعت للتو:

- فزت! هل تقصد أنك استطعت التغلب على أحد القدامى؟

فيجيب "هشام" بلهجته اللامبالية:

- نعم، لقد تغلبت على "رامي".

جلست بجواره بلهفة على كرسي مجاور، وأقول:

- هيا أخبرني، كيف فعلت ذلك؟ أحتاج منك بعض المساعدة. هل هناك نهج معين أو طريقة مختلفة ساعدتك لكي تفوز؟

- في الواقع أجل.

ويضع الكتاب جانبا ويلتفت إلي ويردف بقوله:

- يجب أن تنتبه إلى الأصوات.

- الأصوات!

- نعم، في اللعبة يمكنك تحديد مكان خصمك من صوت وقع أقدامه. وعبر السماعات، التي تساعدك في توقع حركته المقبلة، تستطيع أن تسبقه بخطوات، بالصوت يصدر من السماعة اليمنى حين يكون خصمك في مكان عن يمينك، أو العكس عن يسارك فيكون الصوت من السماعة اليسرى.

- هذه معلومة جديدة كليا. شكرًا لك يا "هشام"، أنا مدين لك. أحتاج إلى تجربة ذلك.

نهضت لأستقر على الكرسي أمام الحاسوب وأعيد تشغيل اللعبة. وبعد عدة جولات عادت الابتسامة على وجهي، ابتسامة النصر. لقد نجحت في أن أطبق ما تعلمته من "هشام" للتو. سأخوض مباراة ودية مع خصوم افتراضيين لأتدرب على هذه التقنية الجديدة. قلت بعد فوزي في عدة جولات:

- أجل، هكذا يكون اللعب.

نظر إلي "هشام" وقد استرعى انتباهه صيحات السعادة التي أطلقتها.

***

في الصباح الباكر استيقظت وقد أعددت العدة لمهمة اليوم، كانت خسارتي أمام "رامي" مخزية للغاية، وعلي أن أبذل ما في وسعي لتخطي "أدهم". ستكون مباراة حماسية للغاية. وضعت السماعات على رأسي وقمت بالتحدث عبر المِصْدَح، وهو الذي ينقل الصوت ويبثه في اللعبة، المثبت أمام فمي:

- أنا مستعد، هل أنت مستعد يا "أدهم"؟

لا إجابة! فأعيد ندائي:

- "أدهم"! هل أنت مستعد؟ أعلم أنك قد ولجت للعبة كما يظهر أمامي على لوحة التحكم.

- صوتك مزعج للغاية، هلا بدأنا.

كان هذا صوت "أدهم" الذي نقلته السماعات والذي لم يخلو من لهجته المتكبرة واستصغاره لشأني. تمالكت نفسي ونفست عن غضبي بشهيق عميق، قمت بالضغط على زر الإدخال في لوحة المفاتيح لتظهر على الشاشة كلمة "ابدأ".

كانت المواجهة قوية ودموية، حاول "أدهم" أن يوقعني في فخ ليقضي علي ولكني تنبهت لخطته فقررت أن أفاجئه. وقد كان! المفاجأة أصبحت من نصيب "أدهم" الذي تلقى سيل من الرصاص لأرديه صريعاً بلا رحمة. لذا كانت صيحتي وفرحتي جارفة:

- أخيرا فعلتها! لقد قضيت عليك. لقد فزت! لقد فزت!

ليظهر على الشاشة كلمة "الفائز" كما أن "أدهم" قد أوقف اللعبة، لعله يكون ساخطا الآن. أعددت نفسي للهدف الجديد، فلابد أني سأحظى بشخص من الصعوبة بمكان الحصول على أسراره، لتصل الرسالة بالهدف، لقد كانت طبيبة تدعى "مروة"! استغرقت بعض الوقت أطلع على بياناتها، لأبدأ في مراقبتها وتتبع تحركاتها وصِلاتِها، بعد ذلك قمت بتشغيل جهاز يشبه المذياع وأوصلته بهاتفه لأتمكن من التنصت على هاتفها. وبالرغم من أن الصوت غير واضح ولكني كنت قادر على الاستماع إلى صوتها وهي تتحدث مع صديقة لها تخبرها عن الرجل الذي صادفته في المستشفى، وكيف أنها قد أعجبت به ولكنها لا تعلم عنه سوى بياناته المسجلة في ملفه المرضي، كم تتوق لرؤيته ثانية والتحدث معه! وعن اللعبة الجديدة التي راقت لها كثيرا، وكيف أنها ممتعة وشيقة، ويتبادل الاثنان الحديث حول فارس الأحلام بحصانه الأبيض الذي ينتشلهما من واقعهما الكئيب.

قمت بالتجسس واختراق الهواتف الخاصة بأصدقائها المسجلة على هاتفها، "مروان" أحد الأشخاص الذي كانت تتواصل معه باستمرار، وعلمت أنه قام بخطبة أختها، من هاتف لآخر وفي غضون ساعات استطعت معرفة كل شيء حوله واختراق هاتفه، إنه يخدع خطيبته "وفاء"، تصفحت بعض الصور المحفوظة على هاتفه فرأيت صورة حديثة له مع إحدى الفتيات، والتي علمت أنها صديقة له ومرتبط بها ارتباطا عاطفيا، وعلى الرغم من خطبته فهو ما زال يكن لها مشاعر حب. أدركت كل ذلك من الرسائل المتبادلة بينهما. ليس هذا فحسب بل "مروان" هذا كان يخفي حقيقته أنه امرؤ نذل، يتلذذ بتعذيب الفتيات بحب كاذب ثم يتركهم بعدها، ولولا إصرار أبويه على أن يزوجوه ما ارتبط. لذا قرر أن يفضحه. فأرسل بالصورة إلى "مروة".

ـ أنت تعمل إذا!

يقولها "مهند" بلهجة ساخرة وهو يقف عند باب الغرفة.

نظرت إليه متعجبا من عجرفته التي لا تنتهي، فقلت:

ـ نعم، أنا أعمل.

ـ إنك تسبب الأذى لهؤلاء الناس، وأنا أنصحك أن توقف ما تفعله فورا.

ـ وماذا عنك؟ ألا تؤذي الكل بغطرستك وغرورك؟

يبتسم بسخرية ويقول:

ـ ما تظنه غرورا هو في الحقيقة كبرياء، وأنا لا أسبب لأحد أي أذى كما تفعل أنت.

ويبتعد عن مرأى "هيثم" وهو يقول:

ـ أنا أنصحك فقط، ولك مطلق الحرية في القبول أو الرفض.

ـ هذا المتكبر! اللعنة!

قلتها وقد أظهر الجهاز وجود العديد من البيانات على هاتفها المحمول حدثت أثناء حديثه مع "مهند"، فقمت باستعراضها سريعا فأجد أنها تتجه إلى البيت وتحدثت إلى أختها عبر الهاتف، ولكنها لم تخبرها عن الصورة تلك. راقبت كل تصرفات "مروة" وتقدمها في اللعبة، ونجاحها في تخطي العقبات. شعرت بالتعاطف معها. لقد كانت مثله بشكل أو بآخر عالقة في بحور الحرمان. فبمجرد أن قامت بتشغيل اللعبة على حاسوبها قمت بقراءة ومعرفة حياتها وأسرارها بالكامل، فكلها مخزنة في الحاسوب أو الهاتف. وهذه الأشياء يسهل اختراقها واستخلاص البيانات منها. لقد قرأت رسائلها التي تمت مبادلتها مع صديقاتها وزملائها، وشاهدت صورها وتسجيلاتها المرئية، ولاحظت لمسة الحزن على وجهها، لقد أدركت أنها تعاني، لذا أسررت في نفسي أن أمد لها يد العون، فقمت بإرسال الرسائل التي من خلالها تجد الحلول للعقبات في اللعبة. وأنا منهمك فيما أفعل تصلني رسالة جديدة على هاتفي كانت الدافع لكي أترك كل شيء وأغادر.

ـ "هيثم"! أين تذهب؟

أوقفتني صيحات "رجاء" لأعود أدراجي وقلت لها:

ـ إنها أمي، لقد أخبروني أنها على فراش الموت.

ـ من الذي أخبرك؟

ـ أخي!

ـ هل أنت متأكد أنها ليست مكيدة للإيقاع بك؟

ـ للإيقاع بي! لماذا؟

ـ هل تمزح؟ أنت مطلوب لدى القضاء لشروعك في القتل وأنك المسؤول عن اختفاء طفل، نحن نعلم عنك كل شيء.

ـ ولكني لم أقصد أن أقتله.

ـ إنه لم يمت! لقد أصيب إصابة بالغة ولكنه بخير الآن.

ـ وماذا عن "فارس"؟

ـ تقصد الطفل المختفي، لقد عثروا عليه واستخلصوه من يد مجرمين عتاة كانوا يريدون أن يؤذوا أبيه.

ـ إذا علموا أنني بريء من هذه التهمة.

ـ أب الولد يريدك سجينا ويتهمك بأنك الرأس المدبر، وخاصة بعد هروبك.

ـ أتقصدين أن أمي بخير، وأن هذه مكيدة للإيقاع بي؟

ـ لا أعني شيئا، أنا أنصح لك. خذ حذرك!

هذا الغموض مريب، أنا أعلم أنها قادرة على التحقق من صحة الرسالة التي أتت من أخي، وعلى الرغم من ذلك تكتفي بتوجيه النصح.

ـ "أحمد"! كيف حال أمي؟

قلتها عبر الهاتف بعدما قررت أن أتحقق بنفسي، ليأتي صوت أخي المختنق من البكاء:

ـ لقد رحلت.

لم أستطع أن أمنع نفسي فأجهشت بالبكاء ثم قلت:

ـ سآتي على الفور.

وقبل أن أخرج من القصر يقابلني "رامي" و"أدهم" وهما يركضان، لم أعد أكترث بشيء، لقد رحلت نور عيني وسلوى فؤادي.

ـ أنت مطلوب على وجه السرعة.

هكذا قال "أدهم" ولكني لم أبالي وتوجهت إلى الباب، وما هي إلا ثوان وقد أمسك الأخير بذراعي وقام بثنيه خلف ظهري، حاولت الفكاك ولكن "رامي" عالجني بضربة قوية على رأسي فأفقد بعدها الوعي.

***

وجدت نفسي في إحدى الغرف مستلقيًا على السرير وأمامي شاشة معلقة على الحائط، فنهضت أريد أن أفتح الباب، لأجده مؤصد، أفتش في ملابسي بحثًا عن الهاتف فلا أجده؛ تضيء الشاشة لتظهر فيها "رجاء" مبتسمة لتقول:

ـ كيف تشعر؟

قلت وقد اعتراني غضب شديد:

ـ أريد أن أخرج من هنا، فكما قلتِ أن "إبراهيم" لم يَمُت وأن "فارس" بأمان، يمكنني أن أعلن عن نفسي الآن وأثبت براءتي.

ـ لا أستطيع أن أسمح لك بالخروج من هنا، لا تنسى أنك تعهدت بالمكوث معنا.

ـ ولكن أمي!

ـ تعازينا الحارة لك، ولكن هذا لن يسمح لك بالخروج.

ـ سيدتي، أتوسل إليكِ.

ـ "هيثم" سأتركك عدة أيام تستجمع شتات نفسك وتريح أعصابك لتكمل مهمتك التي شرعت فيها.

ـ ولكن يا سيدتي...

وقبل أن أنهي عبارتي تنطفئ الشاشة وتتحول إلى اللون الأسود معلنة انقطاع الاتصال. حاولت جاهدا أن أشغلها مرة أخرى بلا جدوى، فجلست واضعا رأسي بين يدي ومستغرقا في التفكير.

ـ رحمك الله يا أمي، كم كنتِ صبورة ووفية.

هكذا غمغمت، واغرورقت عيناي بالدمع شفقا على فراق أمي الغالية. تداركت أن في الأمر ما يهون علي الكرب، فنجاة "إبراهيم" ورجوع "فارس"

إلى ذويه مثلتا مفاجأة سارة. تفقدت الغرفة فوجدتها مجهزة بحمام وفيها ما يجعل من المعيشة أقرب للسجن.

عند الظهيرة، وبعد ساعتين من الاحتجاز، فُتح الباب وولج كلا من "هشام" و"صلاح" ومعهما الطعام، نظرت إليهما بهدوء قائلاً:

ـ ألم يحن الوقت بعد أن أخرج من سجني هذا؟

فيجيب "هشام":

ـ ستخرج! اصبر قليلاً وستأمر "رجاء" بإخراجك.

ويضع "صلاح" الطعام على طاولة قريبة من الباب ويغادران.

ليس لي حاجة في الطعام، بل أريد أن أخرج من هنا بأي طريقة، وانتتني فكرة جنونية، أن أهرب من النافذة. انتقلت لأقف عند النافذة ولكنها مرتفعة عن الأرض والقفز منها يعني الموت بلا ريب. ليس أمامي إلا الباب، سأهرب عندما يُفتح مرة أخرى. ولكن كل مرة يفتح الباب كان أحدهم يقف عند الباب والآخر يضع أو يأخذ الطعام، لقد حاولت بالفعل أن أخرج عنوة ولكن الاثنان كانا لي بالمرصاد. مما جعلهم يقومون بتقييدي قبل أن يدخل أحدهم للغرفة؛ شيئا فشيئا بلغ الاستسلام مني مبلغه، ودنا مني اليأس المطبق، وانزويت إلى ركن من أركان الغرف لا آكل ولا أشرب حتى فقدت الكثير من وزني وأصابني النحول. لحالتي الحرجة تم استدعاء الطبيب بعدما فقدت الوعي تماما، أصبحت طريح الفراش لا أقوى على النهوض، ووصلت بأوردتي محاليل لكي تمد جسدي بما يبقيني على قيد الحياة. لم أكن في كامل وعيي حين سمعت صوت نقاش بالقرب مني. إنهما "رجاء" و"مهند".

ـ يجب أن نتخلص منه قبلما يصبح جثة تسبب لنا مشاكل قانونية نحن في غنى عنها.

هكذا قالت "رجاء" "لمهند" الذي وافقها الرأي، فقال الأخير:

ـ بالفعل هذا الشخص لم أرتح له حين رأيته، ماذا لو سلمناه للشرطة؟

ـ أخشى أن يكشف أسرارنا لمنافسينا أو يفصح عما نفعله هنا.

ـ إذا ماذا ستفعلين؟

ـ سأعرض الأمر على مجلس الإدارة ليقرروا ما سيتم عمله.

يا لني من مسكين، صرت جسدا لا روح فيه، وباءت كل محاولات الطبيب بالفشل لكي يستنهض همتي، لقد كان وفاة أمي ضربة قاصمة لي.

تقف "رجاء" بالقرب من جسدي المسجى فاقد الصواب وتقول:

ـ ما أنت فيه ليس من مصلحتك، يجب أن تتغلب على حزنك ويأسك، وتعود إلى صوابك. هل تعلم أن الإدارة ستتخذ قرار بشأنك حال استمرارك على هذه الشاكلة؟ وغالبا سنتخلى عنك أو سنبقيك تحت الملاحظة لحين الانتهاء من هذا الموسم، كما أن هناك احتمال لا بأس به أن نسلمك للشرطة لكي يتخذوا معك الإجراءات القانونية.

فتصرخ قائلة:

- هيا أفق أيها المأفون!

فتحت عيني لأنظر لها فتبتسم، ولكن هذه الابتسامة لم تستمر إلا لفترة وجيزة، لقد فاجأتها بنهوضي من مرقدي، ونزعت عن ذراعي المحاليل المتصلة به، فتفزع "رجاء" وتقول:

ـ هون عليك يا "هيثم"، ماذا تفعل؟ أنت لست بوعيك!

بخطوات مترنحة خرجت من الغرفة وأستمر في السير حتى أخرج من القصر وابتعدت عنه، ليلحق بـ "مهند" والذي يقفز ليمسك بذراعي، ولكني تفاديته ومن ثم هويت على رأسه بحجر التقطته من على الأرض للتو، فتدور عينا "مهند" في محجريهما ويسقط أرضا بلا حراك.

بخطواتي المترنحة صرت على مسافة بعيدة من القصر لأختفي تماما في الظلام.

*****

يقف "أحمد" يتلقى العزاء من الناس، فيقترب أحدهم منه ويهمس له بشيء ليغادر المجلس مسرعا، فيلج إلى داخل البيت وهو يقول بصوت لا يخلو من السعادة:

ـ أين هو؟

لأخرج من إحدى الغرف وأندفع نحوه وأضمه بقوة وأقول:

ـ ها أنا ذا!

فيقول "أحمد" وتكاد السعادة تغمر البيت بأكمله والتي بدت على محياه:

ـ الحمد لله على سلامتك أخي العزيز.

ـ سلمك الله أخي "أحمد"، كيف حالك؟

ـ أنا بخير يا أخي، كيف أنت؟

أجبته على عجالة:

ـ أنا في خير حال، أريد الذهاب إلى قبر أمي.

في تردد يقول "أحمد":

ـ الشرطة في كل مكان، وهم يتربصون وينتظرون قدومك ليمسكوا بك. خروجك من البيت محفوف بالمخاطر، لذا اختبئ حتى ينصرفوا.

ـ يا "أحمد"، لا أطيق أن أكون بالقرب من أمي ولا أزورها، سأتخفى في ملابس امرأة، أليس هذا ممكن؟

لا يبدو على وجهه الاقتناع، فيقول:

ـ اصبر يا أخي، لِمَ المخاطرة؟

ـ لا تعلم ما مررت به حتى آتي إلى هنا.

ـ هذا يجعلك تتخذ مزيدا من الحيطة.

بإصرار لا يتزحزح قلت:

ـ سأذهب بمساعدتك أو بدونها.

يزفر "أحمد" ثم يقول:

ـ حسنا، سأساعدك.

***

يسير "أحمد" بجواري وقد تخفّيت في زي امرأة، وعند اقترابنا من المقابر تندفع باتجاهنا سيارة مسرعة، وتقف بالقرب منا مثيرة عاصفة ترابية، يخرج منها "مهند" و"أدهم" واللذان يمسكان بي ويدفعاني داخل السيارة، ولكن "أحمد" يقوم بوكز "أدهم" بقوة ويسقطه أرضا، ويهاجم "مهند" الذي يفلتني ليتصدى "لأحمد"، ونتكالب على "مهند" فنطرحه أرضا ثم نركض مبتعدين داخل المقابر.

ـ الحمد لله، كان هذا وشيكا.

قلتها ونحن نلتقط أنفاسنا بسرعة إثر ركضنا، فيسأل "أحمد":

ـ من هؤلاء؟

ـ هذه قصة يطول شرحها، المهم أننا هربنا منهم.

ـ سينتظرونا عند مقبرة أمي، فلنعد أدراجنا، سأخبئك في البيت حتى ينصرفوا.

اقتنعت بوجهة نظره فقلت حزينا مستسلما:

ـ لا بأس، سأعود لأزورها في وقت لاحق.

ـ هذا ما أخبرتك إياه.

***

نسير الهوينا وبخطوات حذرة بالقرب من بيتنا، فيستقبلنا أحدهم ليقول بفزع:

ـ لا تقربوا الدار! لقد اقتحمت الشرطة المكان، وتبحث عن "هيثم" بإصرار.

فيقول "أحمد":

ـ إننا محاصران.

فقلت بجدية:

ـ إنهم يريدونني أنا، فلنفترق. عد إلى حال سبيلك يا "أحمد".

ـ لا لن أتركك، نحن معا في هذا الأمر.

ـ أخشى أن تتورط ويتم وضعك قيد التحقيق لمساعدتك إياي، أرجوك يا "أحمد" دعني واذهب، أنت تعلم أني لن أعدم الوسيلة.

ـ عثرت عليك أخيرا وتطلب مني أن أتركك، سنكمل الطريق سويا مهما كانت العقبات.

ـ إذا ستطيعني فيما أقول، كوني أخاك الأصغر لا يعني أنك ستملي علي كيف نتعامل في هذا الموقف.

ـ بالرغم من عدم اقتناعي ولكني موافق.

ـ هيا سنغادر كل على حدة ونجتمع عند هذا العنوان.

وأكتب عنوان، المكان الذي سنلتقي فيه، على ورقة ثم أعطيه إياها وأقول:

- لا هواتف ولا محاولة للتواصل مع معارفك، أظن أنها مراقبة الآن، قم بإغلاق هاتفك. سأرحل الآن، وسأقابلك هناك.

- حسنا.

ونفترق، حاولت بكل السبل تفادي الاقتراب من الشرطة وفي نفس الوقت أن أكون خفيا عن أعين فريق اللعبة. فقمت بتغيير ملابسي الذي كنت متخفيا فيها، وقبل أن أبتعد عن البيت رأيت "مهند" و"أدهم" يقتحمان المنزل حيث يقام العزاء، ويبحثان بنظرهما عني وعن "أحمد"، فيتقدم إليهما رجل قائلاً:

- إنهما ليسا هنا.

ف يتجاهله الاثنان ويزيحه "مهند" جانبا ليبحث في الغرف، الغرفة تلو الأخرى.

- أين هما؟

يقولها "أدهم" للرجل، فيجيبه:

- لا أعلم! ولا أحد يعلم! لقد قلنا ذلك لزميل لكم من قبل.

- زميل لنا!

- ألستم من الشرطة؟

- أجل!

- إذا لقد أخبرناكم بكل ما نعرفه.

ينظران لبعضهما البعض ويخرجان من البيت في صمت.

- ارفعا أياديكم!

يتوقفان وقد ألجمتهما المفاجأة. فيعيد القائل على مسمعيهما الأمر نفسه:

- ارفعا أياديكم وإلا..

فيمتثلان، ليقول "أدهم" بلهجة واثقة:

- لم نرتكب جرما يا سيدي.

يضع شرطي الأصفاد في أيديهم ويقترب منهما ويقول:

- وماذا عن التعدي على أملاك الآخرين والاعتداء عليهم والتعرض لهم بالتهديد والوعيد وانتحال صفة شرطي؟

- يا سيدي..

بحزم يصيح قائلاً:

- سنصحبكما إلى المخفر لتدلوا بأقوالكما.

فيكبلان ويوضعان في إحدى سيارات الشرطة. كنت في غاية السعادة بمصابهما وقفلت ذاهبا إلى مكان اللقاء مع "أحمد".

***

الفصل الثاني عشر

اللقاء

ـ أنا أقف الآن على مشارف البلدة متشحا بسواد الليل وأقترب من حاجز الجسر، أخطو بخطوات وئيدة متجها إلى الحافة، أقف متكئا على الحاجز والبحر المتلاطم الأمواج أمامي، قفزت! لدي بعض الثواني لأتذكر، لقد خسرت كل شيء، حتى أصدق أصدقائي تحولوا إلى أعداء.

ـ يكفي هذا!

يقولها المعلم لي وأنا أقص عليهم في غرفة الدرس جزء من إحدى قصصي.

ـ إنها رائعة يا "كريم"، أشكرك! هيا اجلس. كما سمعتم يا أبنائي لقد عَنِيَ "كريم" بقصته واستوحى أحداثها، مما يبدو، من...

ليلتفت المعلم إلي ويوجه سؤاله:

- من أين جئت بهذا المشهد يا "كريم"؟

- في الحقيقة استوحيته من لعبة الكترونية تدعى "رفات الشقاء".

- شيء ملفت وتصوير رائع. هيا أخبرنا بالمزيد عن هذه اللعبة.

- إنها... آ...

وقبل أن أشرع في الوصف يعلن الجرس انتهاء الدرس. فيقول المعلم:

- أراكم في الأسبوع المقبل، لا تنسوا إحضار كتيب البلاغة.

ومرت الدقائق ليبدأ الدرس التالي، وحينها يصدر هاتفي صوتا معلنا عن وصول رسالة، لقد كان مرسلها "علام". لم أفهم فحواها، إنه يخبرني أنني في خطر، أي خطر هذا؟

- هيا أعطني هاتفك.

قالتها معلمة الدرس التي ضبطتني بالجرم المشهود.

- ولكن يا سيدتي...أنا لم...

- لا تجادلني، هيا أعطني الهاتف.

فتأخذه مني وينتابني القلق كوني لم أعرف بالضبط أي خطر يتحدث عنه "علام".

ينتهي الدرس فأذهب لآخذ هاتفي، ولكن المعلمة قالت بِغِل:

- لن تسترد هاتفك اليوم، سأسلمه لمدير المدرسة ويمكنك استرداده بعدما يقوم بتأديبك.

- ولكن يا سيدتي...

- قضي الأمر. دعني ألحق بالدرس التالي.

وتغادر مسرعة، فأسير بجوارها قائلاً:

ـ يا سيدتي الأمر جد هام، لا أستطيع أن أتحمل ترك هاتفي لمدة يوم.

ولكنها تدخل غرفة الدرس وتوصد الباب خلفها وتمنعني من دخولها.

لقد تذكرت يجب أن أحدث خالي عن اللعبة، إنه يقطن في مدينة أخرى، ولا سبيل الوصول إليه إلا عبر الهاتف. حتى التحدث إلى أمي لم يصبح متاحا.

***

ينتهي اليوم الدراسي، فقلت في نفسي:

ـ سأتحدث مع مدير المدرسة لعله يسمح لي بالاحتفاظ بالهاتف.

فتوجهت إلى غرفة المدير ولكنه كان غير متواجد، فانتظرته.

ـ "كريم"!

التفت لأرى من تلفظ بإسمي، لقد كانت أمي.

ـ أمي، ما الذي أتى...

تمسك بذراعي وتقول:

ـ ليس لدينا كفاية من الوقت، يجب أن نذهب الآن.

ـ نذهب إلى أين؟

ـ سأخبرك ولكن دعنا نغادر الآن.

بالرغم من عدم فهمي رافقتها لنغادر المدرسة ونستقل سيارتها لتنطلق بنا، لم تنبس ببنت شفة، بدت وكأنها تفكر في شيء. حاولت أن أحدثها قائلاً:

- أمي!

ولكنها لم تجب. كانت مسرعة وتتجه بنا عبر الجسر إلى الشطر الغربي من البلدة. وبدون مقدمات تنظر إليّ قائلة:

ـ سنكون معا إلى الأبد يا فلذة كبدي.

لم أفهم في بادئ الأمر، ولكنها كانت تندفع بسرعة نحو الحاجز أعلى الجسر، والذي يمنع السيارات من السقوط في النهر، فتتجاوزه محطمة له ومندفعة بالسيارة إلى الماء. وأنا أصرخ:

- أمي... ماذا تفعلين؟

لتصطدم السيارة بسطح الماء، شيئاً فشيئا يغمرها من كل اتجاه. لقد كنا نغرق! وإذا بذراع قوية تسحبني إلى الأعلى بعدما قامت بفتح الباب، ورأيت أحدهم يجذب أمي ويسبح باتجاه الشاطئ. وصلنا وكان المعلم "علام" يقف بالقرب فساعدني على الخروج من الماء، لم أتمالك نفسي فقمت بضمه وقلت:

ـ لقد أنقذت حياتي يا سيدي.

وقبل أن يجيب عَلا صوت أمي وهي تصرخ:

ـ أنا لا أريد الحياة! أيها الوغد لقد أفسدت عليّ كل شيء.

وتهم بأن تبطش بالذي أنقذنا، فيكبّلها ويقول لرجل آخر:

- استدعي الشرطة.

لقد أصابت أمي لوثة، تريد أن تقتلني لنموت سويا، لم أتوقع أن يصدر منها هذا.

لم تتأخر الشرطة والتي قامت بمرافقة أمي إلى المخفر لتحقق معها. لم تتوقف هي عن الصراخ والصياح، تنادي علي وتحاول أن تقترب مني ولكن رجال الشرطة منعوها. وتوقفت سيارة إسعاف كانت ترافق سيارات الشرطة وترجل منها طبيبة ومساعدها، ورافقهما شرطي والذي قام بمصافحة المعلم "علام" والاطمئنان علي. إذ يقول:

- حمدا لله على سلامتك. هل أنت بخير؟

- نعم يا سيدي.

- لا تقلق، أباك سيأتي الآن لاستلامك، وفي غضون ذلك ستقوم الطبيبة بفحصك والتأكد من عدم إصابتك.

تصحبني الطبيبة إلى سيارة الإسعاف وتقوم بالاطمئنان على عدم إصابتي، ففحصت عينيي وتفحصت جسدي لتقول:

- الحمد لله لا إصابات شديدة، بعض الرضوض سأقوم بعلاجها الآن.

وتضع الضمادات علي وتطبب هذه الجروح. أراقب المعلم والشرطي اللذان طفقا يتحدثان ومعهما الشاب الذي أنقذني والشاب الآخر والذي انتشل أمي من الماء. انتهت الطبيبة من مداواتي، فاقتربت منهم، وإذا بالشرطي يقول:

- ستودع إحدى المصحات النفسية. إن لم يتم اتهامها بالقتل العمد.

فقلت جزعا:

- من المؤكد إنها لا تقصد أن تمسني بسوء. هذه أمي التي تتكلمون عنها.

ليربت على كتفي الأستاذ "علام" ويقول:

- هون عليك يا "كريم"، المهم أنك بخير، وأنها لم تنجح في فعلتها تلك.

ويشير إلى الشاب الذي سبح بي إلى الشاطئ ويقول:

- هذا "هيثم"، الذي انتشلك من الماء، وأخوه "أحمد"، هما من أخبراني بما كانت تنويه أمك، لقد قام "هيثم" بتتبع هاتفها والتنصت عليه ومعرفة خطتها في الانتحار. فلحقنا بكما وبتوفيق من الله استطعنا أن ننقذكما من موت محقق.

- يا إلهي! لا أصدق أن تقوم أمي بما كانت تريد فعله.

صافحت "هيثم" و"أحمد" بحرارة مظهرا عرفاني بما قاما به.

- ولكن لماذا قام السيد "هيثم" بالتنصت على هاتف أمي؟ هل هذا جزء من اللعبة؟

قلتها بدهشة، ليجيبني:

- أنا كنت ضمن فريق اللعبة، ولقد تركتها بعدما أظهرت الشركة المنتجة وجهها القبيح، لذلك قررت أن أساعدكم بما لدي من معلومات، لقد كنت مسؤولا عنكما وأقوم بتتبعكما ومراقبة كل ما يدور حولكما.

ليقول المعلم "علام":

- يبدو أن الأمر اتخذ منحنى خطراً. أقصد ما تقومون به في تلك الشركة.

- بالفعل الأمر جد خطير، ما تقوم به الشركة يتخطى حدود المعنى الحقيقي للعب، في الواقع هو سيطرة كاملة على حيوات اللاعبين ومقدراتهم. لستم الوحيدين فهنالك طبيبة تحتاج إلى عوني. أنت يا "كريم" وهذه الطبيبة كنتما ضمن مسئوليتي. أما المعلم "علام" فكان يتابعه أحد آخر.

- وأنا بدوري سأساعدك.

كان قائل هذه العبارة رجل ظهر من العدم. أصابت المفاجأة "هيثم" بما يشبه الشلل فلم ينطق بشيء لوهلة ثم قال:

- العميد "سامي"!

وهَمّ بالهرب ولكن يوقفه الأخير بقوله:

- لا تهرب، فلم آتي للقبض عليك ولكن أردت أن أعلمك بأنني أرجعت "فارس"، لقد حاول بعض المجرمين أن يقايضوني به في مقابل أن أخرج شركائهم من السجن، ولكن خطتهم باءت بالفشل، فلقد تمكنا من تحديد مكانهم وقمنا بالهجوم عليهم وتحرير "فارس" والإمساك بهم. لقد اعترفوا بجرمهم وقاموا بتبرئتك، أنا آسف يا "هيثم"، لقد كان اتهامي لك باطل.

- لا بأس يا سيدي، أحمد الله أنك رأيت الحقيقة بنفسك، لم أكن لأتعرض "لفارس" بسوء.

- أدركت ذلك الآن، أرجو أن تصفح عني.

- لا عليك يا سيدي، أين "فارس" الآن؟

- إنه في المنزل مع أمه.

ـ هل لي أن أسألك أن أزوره حال الانتهاء من مساعدة هؤلاء؟

ـ بالطبع وأنا طوع أمرك في أي مساعدة.

ـ أنت تعلم بالطبع يا سيدي عن "إبراهيم" الذي تهجم على منزلي وقمت بطرحه أرضا وأظنه مات وأخبرني أحدهم أنه ما زال على قيد الحياة، فأنا متهم الآن بقتله أو بالاعتداء عليه، لقد دفعته فسقط ولم أقصد أبدا أن يصيبه شيء.

ـ لا تخشى شيئا، لقد قمت قبل مجيئي إلى هنا بالتحدث مع ذويه والذين تفهموا موقفك تماما وتنازلوا عن البلاغ ضدك، أنت الآن حر تماما ولست مطلوبا لأي جهة أمنية.

ـ الحمد لله، وجب علي أن أشكرك سيدي على ما قمت به من أجلي. ولكن كيف علمت بمكاني؟

ـ لقد تتبعك واحد من أفراد الشرطة، وبتعليمات مني بأن يتبعك دون أن تشعر ويخبرني بكل شيء عنك.

يعلو صوت هاتف "هيثم" بالرنين، لقد كانت هذه رسالة جديدة، ليبدو الانزعاج على وجهه بعدما قام بسماع فحواها، فيسأله "أحمد":

ـ ماذا بك؟ أثِمّة ما يسوء؟

ـ لقد تعرضت "سعاد" "لمروة" بالشتم والسب بعد أن أخبرتها بحقيقة "مروان"، يجب أن أتحدث معهما لأكشف لهما الحقيقة.

ـ كيف علمت بهذا؟

سألته ليجيب على عجل:

ـ على كل أجهزة الهاتف ثغرة تجعلنا نحوله إلى أداة تنصت وتتبع، ونستخدم شيفرة حاسوبية لإخطارنا بكل جديد أولا بأول. يمكننا من نبرة الصوت أن تخطرنا هذه الشيفرة بوجود خطب ما.

ويستطرد قائلاً:

ـ حمدا لله على سلامتك يا "كريم"، سأكون على تواصل معك.

ويوجه كلامه إلى العميد "سامي" قائلاً:

- وشكرًا لك سيدي العميد على ما قدمته لي من عون. سألحق بالطبيب "مروة" قبل أن يتفاقم الوضع. أترككم في رعاية الله.

ويغادر "هيثم" مع أخيه بسيارة كانت بالقرب.

فانسلت لألحق به دون أن يشعر، أردت أن أعرف كيف تدار هذه اللعبة، ولماذا يتدخل "هيثم" ليوقف تقدمها؟

ـ "كريم"! توقف.

لقد كان أبي يصيح ليوقفني، لقد وصل ليأخذني معه إلى المنزل، ولكن سبق السيف العذل، لقد أوقفت سيارة أجرة لألحق بالأخوين. نظرت إليه وصحت قائلاً:

- لا تقلق يا أبي سأعود.

فقلت لسائق السيارة:

- انطلق بنا خلف هذه السيارة.

***

لقد كانا يحومان حول أحد المنازل، راقبتهما من على بعد وانتظرت حتى يقدما على شيء، رأيت "هيثم" يتحدث عبر هاتفه فاقتربت لأنصت لما يقول:

- نعم يا سيدتي! أنا أدعى "هيثم" من فريق لعبة "رفات الشقاء"...سأخبرك كل شيء فهلا فتحت لي الباب...أنا أقف أمام المنزل الآن...لا داعي لاستدعاء الشرطة...أرجوك يا سيدتي.

لينظر إلى أخيه، وكأنها أنهت الاتصال بجفاء، فقال:

- لا ترغب في التحدث مع أحد.

- ولكنها ستتحدث معي!

قلتها وأنا اقترب منهما ثم أتجاوزهما وأتجه إلى البيت الذي كانا يحومان حوله.

- "كريم"!

يقولان في دهشة، وقبل أن يقول أحدهما شيء ليوقفني توجهت إلى الباب لأقرع الجرس، ثوان ويفتح الباب رجل وقور، أدركت فورا أنه أبو هذه الطبيبة، فقلت ومازالت آثار الحادث بادية عليّ:

- سيدي لقد أصبت في حادث وأحتاج إلى من يطببني.

لأرتمي على الأرض. فيحملني الرجل ويُدخلني إلى المنزل ويضعني على الأريكة ويصرخ قائلاً:

ـ "مروة".

فتهرع إلينا وقد انتابها بعض الذعر. لتفحصني بتمعن وتتحسس جسدي بأصابعها، فشعرت بالألم فتأوهت.

ـ يبدو أن هناك كسر في أحد الأضلع، يحتاج إلى أن نذهب به إلى المشفى.

فقلت لها:

ـ سيدتي لا أريد الذهاب إلى المستشفى، يبدو أنك طبيبة، أليس كذلك؟ فهلاّ وصفت لي بعض الأدوية لأتناولها في البيت مع الراحة الكاملة.

فكرت لوهلة ثم قالت:

ـ لا بأس، وإن كنت أفضل ذهابك إلى المستشفى. انتظرني هنا سأحضر لك الوصفة.

وذهبت لتحضرها. وبينما أنا في انتظارها تحضر أختها وهي تقول:

ـ أبي! ماذا هناك؟ من هذا الفتى؟ ولِمَ هو هنا؟

ـ لقد تعرض لحادث مروري، وأختك تطببه ريثما يعود إلى بيته سالما.

بدا عليها الضيق من تواجدي، فتقول:

ـ هل أصبح بيتنا مشفى للمشردين؟

ـ لا تقولي هذا، بيتنا كان وسيكون بيت كرم وضيافة لكل محتاج.

لا تُعَقّب وتسير مبتعدة.

ـ لماذا هي متحاملة عليّ هكذا؟

ـ لا تعبأ بها فهي لا تحب الغرباء. ما اسمك أيها الشاب؟

ـ أنا أُدعى "كريم".

ـ في أي صف تدرس؟

ـ أنا في المرحلة الثانوية.

ـ مُوَفّق إن شاء الله.

تعود "مروة" وقد أحضرت ورقة مكتوب عليها أسماء الأدوية الموصوفة.

ـ تناول من هذه العقاقير كما هو مسجل بالورقة مع الراحة الكاملة وبإذن الله ستتحسن في القريب العاجل.

ـ شكرا لك يا سيدتي.

هممت لأرحل وما زلت لا أجد الحيلة التي تمكنني من أن أخبرها بشأن اللعبة، ليعلو صوت جرس الباب، فيذهب الرجل ليرى من القادم. لقد كانا "هيثم" و"أحمد"، ليقول الأول:

ـ مرحبا يا سيدي، لقد قدم إليكم فتى مصاب بفعل حادث، أليس كذلك؟

ـ نعم، لقد فحصته ابنتي، هي طبيبة. هيا تفضلا بالدخول.

قام الرجل بإدخالهما ليبادرني "هيثم" بالقول:

- لا بأس عليك يا "كريم"، لقد أصابنا القلق عليك.

ثم يقول الطبيبة:

- نحن شاكرون لكِ يا سيدتي وناسف على أي إزعاج سببناه. هيا يا "كريم" لنغادر.

- آه...

لقد تعذرت بألمي حتى لا نغادر، أردت أن يساعد هذه الطبيبة اللطيفة "هيثم". لذا قلت وأنا أدعي الألم الشديد:

- معذرة يا عم "هيثم" الألم لا يطاق، ألا تمهلني قليلاً حتى أستجمع شتات نفسي؟

لقد كانت "مروة" ذات جمال متوسط، ولكنها كانت في منتهى الرقة، لم تفارق نظرات "هيثم" وجهها، حتى هي لاحظت ذلك فتورد وجهها خجلا، أما أبوها فقد أدرك أن هنالك ثمة انجذاب بين الاثنين فقال:

- ستغادرون دون أن تشربوا شيئا، يا أم "مروة"! هلا أحضرت شيئا من الشراب لضيوفنا الكرام.

ليقول "هيثم" وقد ظهر على وجهه الحرج:

- نعتذر منكم إن كنا أثقلنا عليكم ولكن...

وبدا على "مروة" الحزن لمغادرتنا المفاجأة، وتفاجأت من رد "هيثم" ورغبته في المغادرة سريعا دون أن يفصح الطبيبة عن الغرض الحقيقي من هذه الزيارة، كما أن الأب لم يمهل "هيثم" فقال بلهجة حازمة:

- والله لتحظون بواجبكم كضيوف. هيا يا رجل! لا تخيب رجاء رجل في عمر والدك.

- لا أدري ما أقول يا سيدي، كما تريد.

يتقدمنا الرجل إلى غرفة الضيوف ويشير لنا بالجلوس. جلس "هيثم" وفي مقابله "مروة" والتي بدت مرتاحة أكثر عن ذي قبل. وجهت إلي الحديث بقولها:

- كيف تشعر الآن؟

- أنا بخير يا سيدتي، والفضل يرجع إلى لمساتك الحانية ومهارتك الواضحة.

- احرص على تناول الدواء بانتظام.

ليسأل "أحمد" الطبيبة:

- هل وصفت له بعض الدواء؟

- لقد فعلت وكتبت له الوصفة، هي معك يا "كريم"، أليس كذلك؟

- بلى يا عم "أحمد". لقد تكرمت علي وأعطتني الوصفة.

يلاحظ "أحمد" نظرات أخيه المسلطة على "مروة" لا تبارح وجهها. أدرك أنها شرارة الحب، وأن أخيه صار ضحية جديدة لنيرانه. لذا قال:

- دعني أحضر الدواء. أعطني الوصفة سأقوم بصرفها من الصيدلية. لقد رأيت واحدة بالقرب من هنا.

ليقول الأب:

- سأصحبك.

وينظر إلى "هيثم" و"مروة" فيبتسم ويقول:

- لن يستغرق الأمر طويلاً.

تنتبه "مروة" أن أباها يحدثها فتقول بعد برهة من الصمت:

- أ... أجل يا أبي.

نظرات "هيثم" تحكي الكثير من الوجدان والوله أما "مروة" فأطرقت بوجهها حياء. رحل الأب و"أحمد" ليطبق الصمت على المجلس فأجد في نفسي الحرج أن أتكلم ولكن يبدو أن العاشقين لن يتكلما. فقلت:

- عمي "هيثم" لقد تخطيت المرحلة الخامسة في اللعبة اليوم، ألا تعلم ذلك؟

انتبه أخيرا إلى مخزي ما أقول، فأجاب:

- آه! هذا شيء غير متوقع. فاللعبة صعبة للغاية على من في عمرك. حتى اسمها ينم عن كونها ليست لليافعين أمثالك، "رفات الشقاء".

حديثنا استرعى انتباه "مروة" والتي بدت متفاجئة، لتقول بحماسة:

- أنا أعرفها هذه اللعبة، هي لعبة إلكترونية، أليس كذلك؟ لقد بلغت المرحلة الثانية فيها.

ليتغير وجهها إلى الوجوم فتستطرد:

- ولكنها محفوفة بالمخاطر وقد سببت لي جرحا لا يندمل.

ليقول "هيثم" بلهجة يشوبها الحذر:

- أنا أحد المطورين لهذه اللعبة.

- أحق هذا؟ أنا في غاية الحرج منك ولكني أحتاج إلى مساعدتك سيد "هيثم". هنالك ثمة مشكلة، وهي مشكلة مستعصية. بسبب هذه اللعبة علاقتي بأختي تشوهت، وخطبتها ستدمر.

- هل قمت بلعبها مؤخرًا؟

- لا، لقد شغلت بعدة أمور فلم يتاح لي أن أكملها.

يعقد "هيثم" حاجبيه، وأدركت عظم المشكلة التي تواجهها، هممت بأن أتفوه بما لا يسرها، ولكن "هيثم" بادر بقوله:

- هلا أخبرتِني بما حدث بالضبط؟

- لقد كانت رسالة تحمل الألم والحزن لي ولأختي "سعاد"، رسالة تحوي صورة لخطيبها وهو يقبل فتاة أخرى. لم أصدق الأمر، هناك خطب ما، فليس من خصاله أن يكون خائنا، أقصد "مروان" بحديثي. صارحت أختي بما حدث، وعرضت الصورة عليها، فما كان منها إلا وقد اتهمتني بأني أدعي عليه كذبا لأفسد علاقتهما. أنا أشعر بأني تسرعت، كان من الأدعى أن أتحقق من الأمر وأواجهه بالصورة. ولكني ما زلت على ظني أنه لم يفعلها وأن هذه الصورة مزيفة. هل يمكنك التأكد من صحة هذه الصورة؟

- أجل، بالطبع.

وأخرج هاتفه وبدأ يشغل بعض التطبيقات، ثم نظر إلى "مروة" قائلاً:

- هلا تطلعيني على حاسوبك.

لتنهض من مقعدها وتتوجه إلى داخل المنزل لتأتي بحاسوبها المحمول وتعطيه "لهيثم" قائلة:

- قمت بتشغيل اللعبة من أجلك... ما هذه الرسالة؟

لقد كانت الرسالة عينها التي ظهرت لي حين تأخرت في اللعب. جمجمة وإطار أحمر وتحذير.

لتصاب بالفزع والحيرة وتقول:

- ما هذه الرسالة المخيفة؟ ما الذي تنشده اللعبة من هذه الرسالة؟

- يجب أن تنهي المراحل القادمة خلال الفترة المحددة في الرسالة.

- وإلا ماذا؟

- وإلا ستواجهي مشاكل لا حصر لها.

تقول بغضب شديد:

- ما خطب هذه اللعبة السخيفة؟ حياتنا ليست ألعوبة في يد أحدهم يفعل بها ما يشاء. لن أرضخ لمثل هذه التهديدات. سأتوقف عن اللعب مهما كانت العواقب. اسمح لي أن أقول أن الشركة التي تعمل لها ما هي إلا محتالون وبغيضون و...

- لا تقلقي يا سيدتي، مجيئي اليوم هو في الأساس لمساعدتك و...

- لحظة واحدة! أنت من حدثني منذ قليل عبر هاتفي. "هيثم"! أليس كذلك؟

لتنهض وقد تملك الغضب منها وتقول:

- سأستدعي الشرطة.

- تمهلي أرجوك! سأوضح لكِ كل شيء.

نَظَرَت إليه بنظرة تشي بارتباكها الشديد، بدت واجمة بِصَمْتها الطويل، تخرق حاجز الصمت بعودتها إلى الكرسي، فتجلس. ويقوم "هيثم" بتوضيح كل شيء. أخبرها بما يحدث في أرجاء الشركة من اختراق للحواسيب والهواتف والتحكم بمجريات حياة اللاعبين وكل ذلك يقع في إطار لعبة جذابة. وتستمر اللعبة في ابتزاز اللاعبين بأسرارهم في مقابل شراء الأدوات والتجهيزات في اللعبة لتخطي العقبات واجتياز المراحل. أخبرنا عن "علام" وكيف أن الشركة أوقعت بينه وبين حبيبته جراء تركه للعب. كانت الدهشة هي العامل المشترك بيني وبين "مروة"، فلم أتوقع أن يتخطى الأمر كل الحدود. لذا قلت:

- يجب إيقاف هذه الشركة الشريرة والتي تبدو كالأخطبوط بأذرعتها الطويلة. يمكنك يا سيد "هيثم" الإدلاء بشاهدتك أمام الشرطة. ما تقوم به هذه الشركة يخالف القانون بشكل فج.

- أنا لا أملك أدلة دامغة ضدها، وموظفو هذه الشركة قد أعدوا العدة والتي تمكنهم من الإفلات من أي تحقيق.

القلق ارتسم على وجه "مروة" لتقول:

- ما الذي يمكن فعله الآن؟

- لا تقلقي، سنلعب ولكن بقواعدنا نحن!

***

الفصل الثالث عشر

حب ولكن

وقوف نحن، أنا والعميد "سامي" والسيد "صابر" فوق الجسر، ننظر إلى سيارة الأجرة التي استقلها "كريم" والتي غادرت للتو. قلت للسيد "صابر":

- لا تقلق، "كريم" يستطيع أن يتولى أمر نفسه.

لينظر إليّ بقلق ويقول:

- أخشى أن يمسه مكروه يا سيد "علام"، فهو ما زال يافعاً ولم يخالط الناس كثيرا، ولا يعلم الكثير عن نفوس الناس والشر الكامن فيها.

- هون عليك، مما رأيته، هو قادر على تخطي الصعاب وتحدي المستحيل.

- هل تثق في هذين السيدين اللذين أنقذاه؟

- لم أقابلهما إلا قبل قليل، ولكنهما من أنقذا "كريم" من موت محتم.

- أريدكم أن تتبعوا السيارة رقم" ١٥٦٦ ج هـ" فوراً.

باستخدام جهاز لاسلكي يحمله العميد "سامي"، قام بالتحدث إلى أحدهم عبره. التفت إلى "صابر" ليقول:

- لا تقلق، سأرسل سيارة في أثره لتحميه من أي مكروه. لقد حفظت رقم السيارة التي أقلتهم.

يستمع إلى من يتحدث إليه ثم يقول:

- أريد أن يتم مراقبة تلك السيارة عن كثب وابلاغي بتحركاتها أول بأول.

يصمت قليلاً ثم ينهي الاتصال، لينظر إلينا بنظرة سريعة ويهرول باتجاه سيارته التي أوقفها بمكان ليس ببعيد، ويقول على عجالة:

- هيا بنا سنذهب إلى هناك ونحضر "كريم".

***

أوقفنا العميد "سامي" بجوار سيارة أخرى برز السائق من خلال النافذة، وبجواره شخص آخر، ليتحدث إلى العميد ويقول:

- إنهم داخل هذا البيت منذ ساعة تقريبا.

- هل رأيتما فتى صغير يرافق من كان في هذه السيارة؟

- لقد رأينا قائد السيارة ويرافقه كهل يتوقفان بجوار البيت ويدخلان، ولم نرى أحد آخر.

- هل قمتم بمعرفة صاحب هذا البيت؟ وهل تقطنه طبيبة؟

- سنتحقق من ذلك يا سيدي. أمهلني بعض الوقت.

ويقوم رجل الأمن بالنقر على شاشة الحاسوب أمامه، وكأنه يقوم بإدخال البيانات، ويقرأ المخرجات، ويستمر في ذلك لعدة دقائق ليقول في نهاية الأمر:

- نعم يا سيدي، الطبيبة "مروة" تقطن في هذا البيت.

يغمغم قائلاً:

- لقد كان "هيثم" صادقا إذا.

ويلتفت إلى السيد "صابر" ليقول له:

- "كريم" بالداخل مع "هيثم" وأخيه، هل تريد أن نحضره؟

- لا بأس يا سيدي، دعه يفعل ما يراه مناسباً.

فقلت متحمسا:

- دعونا ننضم إليهم فالأمر يمسنا جميعا.

وبالفعل طرقنا الباب وقمنا بتقديم أنفسنا لأبي "مروة" والذي رحب بنا، لننضم إلى "هيثم" و"كريم" و"أحمد" و"مروة". بدت الطبيبة "مروة" سعيدة بقدومنا في البداية، ورحبت بنا برحابة، وسألتني عن صحتي وأحوالي. امتقع وجه "مروة" عندما أخبرتها عن اللعبة وأننا جميعا ضحايا لها، ولكن "هيثم" طمأنها وأخبرها عن ما عانيناه منها سيصبح كأنه لم يحدث إذا توحدت جهودنا.

أبوها لم يصدق ما سمع وكأنه درب من الخيال، أما "كريم" وأبوه فقد كانا أكثر ثباتا أمام هذا القدر من الغموض والمفردات التقنية المعقدة، العميد "سامي" كان هادئا وهو ينصت لقصصنا جميعا من قبل "هيثم" أو من خلالنا، لم يبدي أي مشاعر وإن كنت أظن أنه يخفي مشاعر انزعاج وغضب مكبوتين، أما أنا فالقلق بلغ مني مبلغه لذا قلت:

- وماذا عني أنا؟ هذه اللعبة دمرتني وأضرمت في قلبي نيران الحسرة بأن أفسدت علي حبي الوحيد.

قالت "مروة":

- أشفق عليك يا أستاذ "علام". يجب أن تتحدث إلى هذه الفتاة وتوضح لها حقيقة الأمر.

- حاولت ولكنها أوصدت كل أبواب العودة، وامتنعت عن إتاحة الفرصة للتوضيح. لقد أجاد من يديرون اللعبة أن يمسوا وترا حساسا لديها، ليس هذا فحسب بل جعلوا سمعتي وشرفي كالخرقة البالية ينال منها كل لسان.

ليقول "هيثم" بلهجة مطمئنة:

- لا تقلق يا أستاذ "علام" سنجد حلا بإذن الله.

فيقول العميد "سامي":

- دعوا هذا الأمر لي، سأصلح ما أفسدته تلك اللعبة. سنقوم بمداهمة مقر الشركة وتوقيف كل العاملين فيها.

- بأي تهمة؟

- بالاحتيال والتجسس طبعا.

- وماذا عن اتفاقية المستخدم التي بها وافق كل من يلعب هذه اللعبة على التخلي عن حقه القانوني في مقاضاة الشركة وحتى نشر ما يسيء للشركة.

الغضب رافق كلمات العميد "سامي" حين قال:

- اللعنة، إنهم ماكرون حقا!

فتقول "مروة":

- إذا ماذا نفعل؟

يجيب "هيثم":

- يجب إنهاء اللعبة وتخطي كل مراحلها. سأمدكم بما تحتاجونه لتجتازوها بسهولة. هل هناك أحد نعلم عنه أنه قام بتسجيل نفسه كلاعب مؤخراً؟ فأي لاعب عرضة لكي يتم التلاعب به وإفساد كل شيء.

- "مراد"!

هكذا فاجأتنا "مروة" بصياحها وكأنها تداركت شيئا ما. التي أردفت قائلة:

- إنه من أعطاني اللعبة في بادئ الأمر، وكان يتحدث مع "مصطفى" حول اللعبة، وأنها أنقذته من شيء ما. أخشى أن يكون هو أيضًا لاعب آخر.

ليقول "هيثم" بقلق:

- يجب الوصول إليهما وتحذيرهما من مغبة تركها أو إهمالها.

- سأتحدث إلى "مراد" حالا.

وتنهض من جلستها وتستعين بهاتفها لتكلم زميلها ذاك. وقفت عند أحد أركان الغرفة وتحدثت إليه، لم تكن مكالمة مطولة، استغرقت عدة دقائق، لتعود إلى مجلسها وتقول:

- أخبرته أن يأتي حالا.

ليقول "هيثم":

- هذا حسن! سأحاول أن أتحايل على اللعبة لتخطي مراحلها بسرعة. هل تسمحين لي يا "مر".. أقصد أيتها الطبيبة أن أقوم بذلك عبر حاسوبك المحمول؟

- نعم.. نعم، بالطبع.

لم أفهم ما كان يقوم به "هيثم"، فقد كان هناك ما يشبه المعادلات الرياضية وكثير من الحروف والكلمات الغامضة. "كريم" هو الذي كان أكثر إلماما بما يقوم به، وكثيرا ما كان يقترح عليه بعض الأشياء. مر من الوقت ساعة وهما يحاولان جاهدين أن ينهوا اللعبة، وكثيرا ما كانوا يحتفلون، يبدو أنهم سينجحون في ذلك، ولكن تغير وجه "هيثم" عَكَس حقيقة أن هنالك مشكلة ما تواجهه. صمت قليلاً ثم قال:

- لقد قاموا بإيقاف كل شيء!

لم نفهم جميعا فقلت:

- أوقفوا ماذا بالضبط؟

- لقد قاموا بتغيير الشيفرة التي من خلالها يتم التحكم بأرصدة اللاعب من الذهب والذي يستخدمه في شراء الأدوات والمعدات اللازمة لتخطي المرحلة. لقد اجتزت عدة مراحل ولكنهم كشفوا ما أقوم به فأوقفوا كل شيء.

- ماذا الآن؟

وفي آن واحد تصدر هواتفنا كلنا رنين متواصل لتعلن عن اتصال من مصدر مجهول. ليقول "هيثم" بسرعة:

- نحن مراقبون، أعطوني هواتفكم بسرعة.

نمد أيادينا بالهواتف والتي يعمد "هيثم" إلى غلقها واحد تلو الآخر. ولكنه يعيد للعميد "سامي" هاتفه قائلاً:

- لا أعتقد أن هاتفك مراقب يا سيدي.

ليقول الأخير:

- يبدو أن خطتك لم تنجح، سأستخدم أسلوبي أنا في إنهاء هذا الأمر. أين مقر هذه الشركة؟

- كما أخبرتك يا سيدي، هذا لن يجدي نفعا.

- لا يهم، سأفعلها بطريقة مختلفة.

مستسلما لرغبة العميد "سامي" أخبره "هيثم" بمكان مقر الشركة. ليقوم الأول بالتحدث عبر هاتفه إلى شخص يبدو وكأنه رئيسه، ويقص عليه ما حدث، ولكن تغييرات وجهه أوحت لي بأنه لم يتلقى الرد الذي كان ينتظره، لقد قال:

- ولكن يا سيدي، إنهم يبتزون الناس وينتهكون حدود الحرية الشخصية... ولكـ... حسنا يا سيدي... كما ترى... في أمان الله.

وينهي الاتصال. لذا قلت بفضول:

- لم يوافق، أليس كذلك؟

ينظر إلي بنظرة جوفاء مفادها الفشل الذريع. ويعلق على قولي:

- لقد رفض أن نتدخل. هذا الأمر يتخطانا ذلك لأنه ليس هناك ثمة قوانين ضده في الوقت الحالي، وكذلك الموافقة التي يحصلون من اللاعبين عليها كفيلة بأن تزيل تهمة الإرغام.

أطرق الكل برؤوسهم. رميت بصري إلى ساعة اليد التي أحملها.

يقول "كريم" وهو يفكر فيما قاله العميد "سامي" للتو:

- أتوقع أن ما سيقوله خالي يطابق هذه الرؤية إذا ما أردت الاستعانة به.

فيقول الأخير مستعلما:

- هل خالك شرطي؟

- أجل يا سيدي هو مقدم ولكنه يقطن في مدينة أخرى.

- لقد تأخر الوقت!

هذا ما قلته فألقى الكل أنظارهم إلى ساعاتهم. ليقول كلا من السيد "صابر" والعميد في وقت واحد:

- هذا صحيح.

فيقول "هيثم":

- يجب أن نتفق على خطة وإلا ستحيل اللعبة حياتكم إلى جحيم.

- لنلعب بقواعدهم هم، هذا هو الحل الوحيد.

هكذا كان اقتراحي والذي لاقى قبول الكل، ما عدا "هيثم" الذي بدا غاضبا بقوله:

- هل تستسلمون بهذه السهولة؟

لتقول "مروة" بلهجة المذعن الأمر:

- فما الذي يمكننا فعله؟

- دعوني أفكر... وجدتها! يمكننا أن نباغتهم في مقرهم ونوقفهم بالقوة.

يضحك والد الطبيبة والذي انتهز فرصة الصمت ليقول:

- أي قوة يا "هيثم" نحن لا نملك شيئا منها، فنحن مسالمون تماما ولسنا جنوداً. أوافق على ما قاله المعلم "علام". يجب أن تلتزموا بما تطلبه اللعبة حتى تتجاوزا كل المهام. هذا صوت جرس الباب. سأقوم لأستقبل الضيف القادم.

تقول "مروة":

- إنه حتما "مراد".

سمعت صوت أبو "مروة" وهو يفتح الباب ويرحب بالوافد الجديد، وبدلا من أن يدخل علينا "مراد" كما كان متوقع، إذا بهما اثنين مفتولي العضلات يأتيان ومن خلفهما يهرول أبو "مروة" وهو يصيح قائلاً:

- لا يصح ما تقومان به، أنتما ليس مرحب بكما.

يقفان في منتصف الغرفة التي نجلس فيها وينظران إلينا بنظرات متفحصة، يبتسم أحدهما وهو ينظر إلى "هيثم" و "أحمد" ويقول بلهجة ساخرة:

- ها قد التقينا ثانية يا "هيثم"، لا مهرب لكم الآن. سترافقوننا طوعا أو كرها.

يقف أبو "مروة" في مجابهته ويقول بتحد:

- ليس لكما الحق في أن تصحبا ضيوفي رغما عنهم. ومن أنتما؟

- هذا الأمر لا يعنيك يا رجل. أنت وأنت وأنت وأنتِ قوموا معي وإلا سننال من هذا الرجل.

قام بالإشارة لي و"لكريم" و"هيثم" و"مروة" أما أبوها فقد كبله واضعا ذراعه خلف ظهره فيصرخ من الألم.

تندفع "مروة" اتجاهه تريد أن تذود عن أبيها ولكنها تلقت صفعة لتعيدها إلى مقعدها. وقفنا جميعا من هول الموقف. وهرع "هيثم" للاطمئنان عليها وهو يقول:

- اللعنة عليك يا "أدهم". لقد آذيتها.

ليقول "أدهم" وهو يبتسم ابتسامة الواثق مكبلا للرجل:

- هذا جزاء ما اقترفته، من الآن وصاعدا ستعتادون السمع والطاعة. هيا قوموا لنرحل من هنا. قم بتكبيلهم يا "مهند".

يشهر العميد "سامي" سلاحه الذي كان يخفيه، وينهض من مجلسه، ثم يقول بحزم:

- لقد اكتفيت من هذا الهراء، استسلما وإلا سأرديكما.

يمتقع وجههما وقد سلطا بصرهم على المسدس، يرفعان أياديهم، ويشير لهما العميد بأن يجلسا على ركبتيها. فيمتثلان، ليقول الأخير "لهيثم":

- كبلهما بالأصفاد التي معهما. من هما يا "هيثم"؟

قمت بوضع الأصفاد وقلت:

- إنهما من الشركة.

- كما توقعت. سأستدعي الرجال وسيتم التحقيق معهما في المخفر.

ينظر بعضهما إلى بعض ويبتسمان، وكأن هذا الأمر لا يدعوهما إلى القلق، مما جعل العميد يسألهما:

- ما الذي يدعوكما إلى الابتسام؟ ستلقيان معاملة خاصة في السجن.

لم يجيبا وتجاهلا التهديد مما أثار حفيظة العميد والذي أشرف بنفسه على إيداعهما سيارة السجن. ليقول لأفراد الشرطة الذين يصحبوهم:

- هؤلاء المجرمين قاموا بتهديدي وأريدهم أن يحظوا بمعاملة خاصة جدا.

ليقول أحدهم مبتسما:

- أمرك يا سيدي. هؤلاء خرجوا للتو من المخفر بعدما اتهموا بالاعتداء على أحدهم. هذه المرة لن يفلتا من العقوبة.

كنت أقف بالقرب مع "هيثم" و"مروة" التي تمالكت نفسها بعدما أوشكت أن تنهار من صدمتها لتقول "لهيثم":

- ما العمل الآن؟ لن تدعنا هذه اللعبة وشأننا. ماذا كانوا يريدون منا؟

- نحن نمثل لهم مشكلة ويجب التخلص منها، لذلك أظن أنهم كانوا سيقومون بحبسنا في مكان ما.

- يا لعمري! ما الذي فعلته؟ لقد أهلكت نفسي بلعبة.

- لا تقلقي، سنجد حلاً.

- "مروة"!

-"مراد"!

- لقد أتيت على قدم وساق. هل أنتِ بخير؟

- نعم، أنا بخير.

ينظر "مراد" إلى السيارة الشرطة والتي تغادر محملة بالمُجْرِمَين فيستطرد في فضول:

- ما الذي حدث هنا؟

فتجيبه "مروة" بقلق:

- الأمر خطير ويمسّك شخصياً. ولكن دعني أقدم لك السيد "هيثم" والأستاذ "علام".

يصافحنا بشيء من اللامبالاة وقد بدا القلق على وجهه لتكمل:

- وهذا هو الطبيب "مراد" الذي أخبرتكم عنه.

- ما هو هذا الأمر الخطير؟

- سأشرح لك. ولكن دعنا ندخل المنزل ونتحدث داخله.

الفصل الرابع عشر

خداع

إنها لحظات فاصلة في حياتي، تلك التي تلت معرفتي بحقيقة "علام". هذا المخادع كان يدعي حبه وهو مجرد أفّاق محتال. ولكنه.. ولكنه بدا لي صادقا في مشاعره التي تفيض حبا وعشقا. تكاد رأسي تنفجر من الحيرة.

- "ريهام"!

- نعم يا أبي.

- ماذا بكِ يا بنيتي؟ لقد كنت أناديكِ ولكنك لم تجيبي.

- لا شيء يا أبي، لقد كنت أفكر. أنا متأخرة جدا في استذكار دروسي.

- لا تهملي دروسك يا بنيتي. يبدو أن "علام" يشغل تفكيرك، وهذا شيء لا أرحب به.

لم أستطع أن أجيب، فقد غلبتني دموعي والتي انهمرت على وجنتي، ليضمني ويقبل رأسي. يستطرد بقوله:

- لا تبكي يا حبيبتي، فلا شيء في الدنيا يستحق أن تبكيه.

أردت أن أخبره بخيانة "علام" ولكن الكلمات أبت الخروج من حنجرتي

وكأنها تتعاطف معه. نظرت إلى أبي وكفكفت دموعي ثم ابتسمت، ليقول:

- بالله عليكِ لا تحرميني من ابتسامتك الرائعة تلك. هيا اغسلي وجهك وقومي إلى كتبك واستذكري دروسك. وأنا سأعمد في الغد إلى التحدث مع مدير المدرسة عن "علام" ذاك. وسأحضر لك من يفوقه علما ودراية.

غادرني وانهمكت بين الكتب أحاول أن أنسى، ولكني ما زلت متلهفة لسماع صوته، لعله يأتيني بما ينفي عنه هذه التهمة الشنعاء، ولكنه لم يبرر للحظة موقفه، وهذا يجعلني أوقن أنه خائن. تمر الدقائق علي وأنا واجمة، لقد كنت في مكان آخر، فوق السحاب ربما، أطل على "علام" من هذا العلو لعلي أجد ما أصبو إليه، الحقيقة ولا شيء غيرها. التقط هاتفي لأعيد النظر للصورة المقيتة، لا أدري ما الذي دفعني لفعل هذا، حملقت فيها قليلاً ، لا مجال للشك، هذا "علام" وهذه الفتاة. لحظة! أنا أعرفها، إنها إحدى الزميلات في المدرسة، لا أصدق! مستحيل أن تقوم بهذا العمل المشين! فهي فتاة مهذبة خلوقة، فمن التقط هذه الصورة؟ بحثت في أرجائها حتى وقع بصري على كلمتين في طرف الصورة، "رفات الشقاء"! بحثت في الشبكة العنكبوتية عن الكلمتين لأجد أنهما اسم للعبة. أمن المعقول أن يكون كل هذا مجرد مزحة سخيفة من لعبة أسخف؟ لذا حاولت محادثة "علام" عبر الهاتف لأتبين الحقيقة منه، قلبي ينبض بسرعة، تمنيت في نفسي أن أكون قد ظلمته، بالرغم من أن الظلم شيء مذمم، ولكنه أفضل من الخيانة. حاولت مراراً وتكراراً دون فائدة، لا يجيب على اتصالي حيث أسمع صافرة أنه مشغول بمكالمة أخرى ربما، أرسلت له رسالة عبر هاتفي أسأله عن الحقيقة، وعلى أحر من الجمر أنتظر رده.

مرت ساعة ولا إجابة. أتصل به مرات ومرات بلا فائدة. هل أصابه مكروه؟ الساعة الآن الخامسة بعد الظهر، لابد أنه في مسكنه، أحتاج أن أراه، لذا قمت بارتداء ملابسي، وتوجهت إلى الباب ليأتي صوت أبي من خلفي ليوقفني:

- "ريهام" أين تريدين الذهاب؟

سيرفض أبي ذهابي إلى "علام". هل أكذب؟ فقلت بارتباك:

- سأزور أحد الأصدقاء.

- إذا سأقود بك إلى هناك.

- لا داعي يا أبي العزيز ستقلني سيارة أجرة، لن أتأخر.

غادرت قبل أن يخبرني بما لا أريد. عبر الطريق في سيارة الأجرة ما زال الأمل يحدوني أن هذه الصورة غير حقيقية، وصلت حيث مسكن "علام"، قرعت جرس الباب؛ لا إجابة! عاودت المحاولة ولكن لا يوجد أحد بالداخل، حتى أني حاولت أن أكلمه عبر الهاتف، ليصدر نغمة أن المتلقي يتحدث لأحدهم الآن. هذا جعلني أشك أنه قام بحجب اتصالاتي. ما العمل الآن؟ لن أستسلم بهذه السهولة.

- الآنسة "ريهام"! أليس كذلك؟

التفت إلى القائل والذي كان شابا نحيلا يرتدي نظارة سميكة، تبعث رؤيته الراحة في من يراه. ولكن كيف علم اسمي وأنا لا أعرفه، فأجبته:

- بلى، من أنت؟

- أنا صديق مقرب للأستاذ "علام"، لقد أصيب، وهو الآن في المشفى يتلقى العلاج.

مشفى! وأصيب! لأسأله دون تردد بقلق لم أخفيه:

- ماذا أصابه؟ هل هو بخير؟

- حادث بسيط وهو يتلقى الرعاية الطبية اللازمة، لا تقلقي! رافقيني وسأدلك على مكانه.

ركبت سيارته وانطلق بي إلى المستشفى، ولكنه اتخذ طريقا مغايرا لما كنت أتوقعه. فسألته:

- أين هي هذه المستشفى؟ نحن نسير خارج المدينة!

رأيت ابتسامته التي لم أرتاح لها، لقد كانت مزيج من السخرية والاستهزاء. هلعت، وأدركت أنه لن يأخذني إلى "علام" بل إلى مكان آخر. صرخت ولكنه عالجني بقطعة قماش مبللة بمادة ما وقد ألصقها بأنفي. حاولت المقاومة ولكني فقدت الوعي.

***

استيقظت لأجد نفسي مقيدة بحبل على كرسي أجلس عليه. لم أستوعب الموقف بسرعة، فما زلت أشعر بالدوار. الرؤية الضبابية تمنعني من الإبصار بوضوح، حاولت التملص من الحبل الذي يقيدني ولكنه كان محكما. لم أرى الشخص، بشكل واضح، الذي اقترب إلى دائرة الضوء في هذه الغرفة المظلمة، ليقول:

- لا تتعبي نفسك. فنحن لن نمسّك بسوء. أنا "رجاء" وأنت "ريهام"، أليس كذلك؟

صحت وقد فقدت رباطة جأشي:

- اتركيني، هيا، أنا لم أفعل شيئا. لماذا تفعلون بي شيئا مريعا هكذا؟

- أنت من اختارك "علام" لتكوني له زوجة. أراه قد أجاد الاختيار.

- ما الذي تريدينه مني؟

- ستنزلين علينا ضيفة كريمة لمدة بسيطة. وفي غضون هذه الفترة ستلقين معاملة متميزة.

- أنا لا أريد، اتركيني هيا.

- الأمر ليس رهن أوامرك. من الآن وصاعدا ستنفذين ما أقوله لك دون تردد وإلا سننال من أبيك وأمك، وحتى "علام" لن ندعه وشأنه.

- ما الذي ارتكبته لألقى مثل هذا المصير؟

أمسكت وجهي بيدها وقالت بلهجة ساخرة:

- أنت ما زلت صغيرة يا عزيزتي، التزمي الصمت واتبعي أوامري.

- لا لن أسكت! سأ...

لم أستطع أن أكمل عبارتي، فقد وضعت قطعة قماش في فمي. لتقول:

- هذا أفضل. اصمتي وإلا سأمنع عنك الطعام والشراب.

حاولت جاهدة أن أرفع هذه القيود عني ولكنها كانت محكمة. تنظر إلى رجاء باستخفاف وتغادر الغرفة مغلقة الباب خلفها وأسمع صوت القفل وهي توصده بالمفتاح. يا له من مأزق، أين أنت يا أبي لتخرجني من هذا السجن؟ حاولت مرارا وتكرارا كي أفلت من هذا القيد ولكن بلا فائدة. الغرفة كانت مظلمة بالكامل إلا من ضوء مصباح قديم يتدلى من الحائط، أثاث متهالك عليه التراب موضوع في ركن الغرفة وطاولة صغيرة أمامي، هذا ما تبينته من معالم المكان، وكأني في قبو ما. سمعت صوت حركة تصدر من الجزء المظلم، حاولت أن أرى الفاعل، ولكن الظلام حال دون ذلك. أصابني الفزع فصرخت ولكن فمي المكمم جعلني أصدر صوتا مكتوما. الصوت يقترب مني وعيناي توشك أن تخرجا من محجريهما من هول الموقف. الانتظار وحده كان كفيل ببث الرعب في قلبي. انتظار المصير الحتمي الذي يلحق بالمرء حيث ذهب. خفقات قلبي كانت تدوي كقرع الطبول. حاولت أن أهدأ وأتمالك رباطة جأشي. لقد كان فأر صغير هو من كان يعس في الأرجاء باحثا عن طعام. إنه يقترب مني وأنا أوشك أن أنصهر رعبا. الصرخات المكتومة لم تمنعه من الاقتراب أكثر وأكثر. بكيت لشعوري بالعجز، وسرى البرد في أوصالي، فأنا أخشى الفئران خشيتي الأسود. حركتي كانت مقيدة بفعل الحبال التي أحاطت بقدمي وجسدي. أشعر بالأرض تميد بي، سأفقد الوعي. ليُفتح الباب فيجزع الفأر ويفر إلى جحره وتدخل "رجاء" وتراني على هذه الحالة. أرتجف وشَحُب وجهي وكأنه خلا من الدماء. رأيت ابتسامتها السمجة وفيها لمحة من السخرية لتقول:

- ما الذي أصابك يا عزيزتي؟ وجهك شاحب وكأنكِ رأيت الموت عيانا.

أردت أن أخبرها بأني سأكون طوع أمرها ولكني لم أستطع بفعل هذه القماشة داخل فمي.

- تريدين أن تقولي شيئا.

وتنزع قطعة القماش فأتمكن من القول:

- أنا رهن أمرك، أرجوك يا سيدتي أخرجيني من هذه الغرفة. أنا لا أطيق أن أمكث فيها ولو لثوان.

- حسنا يا "ريهام"، سأخرجك ولكن بشرط.

- سأفعل أي شيء. أرجوكِ.

- ما ستفعليه لأجلي كفيل بإخراجك من هنا، ولكنك يجب أن تضحي بحبك "العلام". أنت تحبينه، أليس كذلك؟

لم أحر جواباً، فأنا لا أدري هل ما زال قلبي يحمل الود والحب أم يضمر له الكره والبغض. أنظر إليها وأتخيله بالقرب يبتسم ابتسامته الواسعة التي تدفعني إلى الابتسام بدوري. نظرات الهيام التي أراها منه حين نلتقي، والقلق الذي يرتسم على وجهه حينما أغضب. كل هذا يدفعني إلى الحيرة.

- لم تجيبي، إذا ما زلت تحبينه، فسكوتك أبلغ إجابة. ولكنك لن تغضي الطرف عما قام به من خيانة. ستقتصي لنفسك وستجعلينه يتجرع أكواب المرارة والحرمان. وسأخبرك كيف.

تركتني لأرتاح قليلاً في غرفة جديدة وذهبت، لا أستطيع أن أفعل ما تمليه علي هذه المرأة، إنها تدعوني لكي أحطم قلب "علام" تماما، ولكن شبح

الغرفة المقيتة يطاردني، فكيف السبيل إلى الخلاص؟ أنا الآن في غرفة آدمية حيث الفراش الوثير المرتب ومكتب صغير وثلاجة. هذه الغرفة شبيهة بغرف الفنادق حيث الأناقة والبساطة. أخبرتني أنهم من أرسلوا الصورة التي التقطت "لعلام" وهو يقبّل فتاة كرسالة إلى هاتفي. إنهم يعبأون لأمري ولا يضمرون لي أي سوء. لا أجد بُداً إلا أن أنصاع، وليغفر الله لي. تمر ساعة ويُفتح الباب ومن خلفه كانت هي، بدت متحمسة ومستعدة للقيام بخطتها. لتقول:

- هل استرحت يا عزيزتي؟

نظرت لها وقد أدركت أنه قد حانت اللحظة التي فيها سأحسم أمري. ابتسمت قائلة:

- نعم أنا بخير.

- إذا لنبدأ.

انتقلت معها إلى مكان يذخر بالشاشات والحواسيب والأسلاك المتصلة بهم. بدت كغرفة الخوادم، والتي فيها تتلقى الحواسيب كل البيانات وتقوم بتخزينها. ومنها إلى غرفة مغلقة، فقامت بفتح الباب ليستقبلنا الظلام والصمت المطبق.

توقفت وأحجمت عن التقدم، هل تريد أن تضعني في هذه الغرفة؟ فصحت قائلة:

- لا لن أدخل! إني أخشى الظلام!

- لا تخافي ليست الغرفة كما تظني، سأنيرها لكِ.

وبالفعل أضاءت الغرفة لأجد فيها شابا في مثل عمري يجلس على فراش، لقد كان عاري الجذع واعتدل بمجرد أن رآنا. ليس هذا ما اتفقنا عليه، لقد أخبرتني أنها ستلتقط لي صورة مع شاب وترسلها إلى "علام"، هذه بتلك، ولكن هذه الرذيلة ليست لي وأنا لن أبيع نفسي. وقبل أن أتراجع أمسكت بي ودفعتني بقوة إلى داخل الغرفة، لأرتمي بين ذراعي الشاب الذي استقبلني وأمسك بذراعي بقوة. شعرت بضوء آلة تصوير وسمعت صوتها وهي تلتقط الصور لي والشاب الذي كبل حركتي تماما. ذرفت الدمع ولجأت إلى الله عله ينقذني فلا مهرب لي ولا ملجأ إلا إياه. بدأ في تقبيلي وأنا أحاول الفكاك من ذراعيه المفتولتين. قلت:

- أرجوك، لا.

وكأنه لم يسمع رجائي. لقد مزق ثوبي واستمر في تقبيلي.

- كفى!

توقف الشاب بمجرد سماع صوت "رجاء" وهي تصيح وتركني، أردت أن تبتلعني الأرض ولا تترك لي أثرا. هرعت خارجا من الغرفة فتوقفني "رجاء" قائلة:

- تمهلي!

حاولت الإفلات منها ولكنها ضمتني بقوة وهي تقول:

- لا بأس، لا بأس. لقد أديت المطلوب. لا تخشي شيئا.

نظرت إليها وأنا غير مصدق لما قامت به. إنها نالت من عرضي من أجل أن تنال من "علام". دموعي كانت تنهمر كالسيل.

- كفكفي دموعك يا عزيزتي، لقد كان مشهد تمثيلي ليس إلا.

فقلت باكية:

- أريد العودة إلى البيت.

- سنرجعك إلى البيت، لا تقلقي.

صحبتني إلى غرفتي وتركتني. حاولت أن أتمالك نفسي ولكني كنت منهارة تماماً. راودتني نفسي أن أنتحر فلا حياة لي بعدما حدث. وقفت أمام مرآة صغيرة معلقة، أنظر إلى وجهي فلا أرى سوى الخزي والعار. كيف لي أن أوافق على ما قالته لي، يا ليتني رضيت بالغرفة المظلمة. لقد ضاع مستقبلي بالكلية. سأترجاها أن تمسح هذه الصور. حاولت الخروج من الغرفة ولكنها كانت موصدة. طرقت الباب بقوة وصدحت بالصوت:

- سيدة "رجاء"، أريد أن أتحدث إليكِ، أرجوكِ.

وما من مجيب. سأبقى محتجزة هنا حتى يحين موعد الطعام. أخذت أبكي بدون توقف، لا أدري ماذا أفعل. لا أطيق أن أرى هذا الوجه الآثم. وبدون وعي قمت بلكم المرآة محطمة إياها إلى جذاذ، وانبثقت الدماء من يدي كما الأبحر الثائرة. نظرت إلى تلك المدماة غير عابئة لما أصابها، ونظرت إلى قطعة زجاج كبيرة، هذه هي مخلصتي. التقطتها ووضعتها على رقبتي. وقبل أن أمررها فُتح الباب. لقد كان آخر من أتوقع أن أراه. لقد كان "علام"، الذي اندفع نحوي، ويدفع قطعة الزجاج بعيدا عن نحري. وبسرعة، ينزع الملاءة

من على السرير ويجعلها كضمادة ليدي، ليوقف النزيف. لم أصدق عيناي فقلت والأرض تميد بي:

- "علام"

وقبل أن أهوى على الأرض أحاطني بذراعه، وأوقف سقوطي الذي سيكون سقوطا مدو. أخذت أبكي بلا توقف، "وعلام" يحاول أن يهدئ من روعي. أبكي على ما أذنبت، وعلى وجوده معي، لقد أتى لينقذني من موت محقق. قلت والبكاء يخالجني وبصوتي المختنق:

- لا، أتركني. أنا لا أستحق تضحيتك ولا قربك. لقد خنتك.

- لا لم تفعلي، لقد أجبروكِ. أنا أعلم كل شيء.

- لقد خفت! وضعتني في غرفة كالقبر مقيدة، وكانت تعج تلك الغرفة بالفئران.

- هوني عليكِ، لقد انتهى كل شيء. وسيلقون جزاءهم.

تمنيت أن يكون هذا حقيقي وأن كل هذا العذاب قد انتهى.

***

النهاية

كانت سعادتي غامرة حين جلست بجواري "ريهام" ونحن راحلان إلى مكان بعيد نقضي فيه مزيج الحب والشوق والحنين، لقد أتممنا الزواج بمباركة أبيها الذي رأى فيّ الشخص الذي يثق به، وأصبح أكثر ودا مع مخدوميه وموظفيه بالشركة، وأصبحت مديرا لمكتبه وكاتما لأسرار عمله. لقد قام "هيثم" والعميد "سامي" بتوضيح الأمور لدى "ريهام" والتي وافقت على زواجي بها. وكم كانت سعادتي غامرة لأجد الطبيبة "مروة" ومعها "هيثم" يقضيان وقتيهما في هذا المكان الجميل حيث يتجه الناس في فصل الصيف ليستمتعوا بالبحر وجَوّه المنعش كزوجين سعيدين. أما "كريم" فبعد أن استطعت أن أنقذه من براثن أمه المجنونة، عاد لأبيه وقد أتم دراسته والتحق بكلية الهندسة ليشبع رغبته في تطوير وتصميم الألعاب الإلكترونية. وبفضل العميد "سامي" تجاوز "إبراهيم" عن "هيثم" ورضي بالصلح واستمر الأخير بالعمل في النادي. أما الشركة فأخبرني الأخير أنها قد تلقت خسارة كبيرة وفضيحة مدوية بعدما قام تحقيق صحفي بنشر خباياهم وطرقهم الملتوية في اختراق الخصوصية وإجبار اللاعبين على دفع مبالغ مالية لكي يتخطوا مراحل اللعبة المختلفة تحت تهديد أن تفضح أسرارهم، لقد كان "صلاح" هو في الحقيقة صحفي يعمل في الخفاء وقد استطاع بحنكة أن يكشف كل شيء على الملأ. وعلى إثر هذا التحقيق تحركت الجهات الرسمية لتتبين صدق هذه الادعاءات مما جعل من "رجاء" و"كمال" و"وجيه" مطلوبين، بيد أنهم هربوا قبل أن تنالهم يد العدالة.

- ما لي أراكِ واجمة هكذا؟ ألا تشعرين بالسعادة؟

قلتها "لريهام" التي ابتسمت بابتسامة حزينة وقالت:

- كيف علمت بمكاني وقمت بإنقاذي؟ لم تأتي على ذكر هذا الأمر، وها قد مر عدة أشهر على هذه الحادثة.

أمسكت بيديها الرقيقتين وقبلت إحداهما ثم قلت:

- آه يا حبيبتي، أعلم أن ما حدث لك ليس بالأمر الهين، فلم أعد أرغب في أن أذكرك به. لم يكن الأمر بهذه الصعوبة، فلقد قام العميد "سامي" بتتبع هاتفك المحمول. فالكل كان قلقا وبالأخص والدك الذي في البداية ظن أن لي يد في اختفائك، لقد حدثني على هاتفي، فقمت أنا والعميد "سامي" بتوضيح الأمور له واقتفينا أثرك. لقد داهمنا مقر الشركة واعترف رجل وجدناه هناك بمكانك.

- لقد حاولت أن أحدثك عبر الهاتف لأتبين منك صحة هذه الصورة المقيتة ولكن هاتفك كان كالمنشغل طوال الوقت.

- يا حبيبتي إنها من ألاعيب هذه الشركة المحتالة، كانوا يريدون الإيقاع بك لذا حجبوا كل اتصالاتك عني.

- وماذا عن "رجاء"؟

- من "رجاء"؟

- إنها المرأة التي احتجزتني. ألم تمسكوا بها؟

- لا لم نجد أحدا في الشركة غير ذاك الرجل. لقد هربوا جميعهم.

- وماذا عن الغرفة التي حوت على حواسيب والكثير من أجهزة الاتصالات؟

- أي غرفة؟ لم نجد شيئا يا حبيبتي مما تقولين.

لم يبدو على وجهها أي تغير، فالقلق واضع بصمته على وجهها. فسألتها:

- لمَ القلق إذا؟

ابتسمت ثم قالت:

- لا، لا شيء.

هناك شيء ما تخفيه عني، لم أتطرق أبدا لما مرت به في مقر الشركة. ولكنها ليست هي "ريهام" التي أعرفها.

***

- كم أشعر بالحزن على "سعاد". ما فعله بنا "مروان" كان أشد بأسا مما فعله "وفيق"، رحمة الله عليه، بي. لم نتخيل أبدا أن يكون "مروان" خائنا بهذا الشكل.

يجيبني "هيثم" الذي كان مستلقيًا على ظهره تحت المظلة وأنا بجواره ومياه البحر تداعب أقدامنا، وبجوارنا "علام" "وريهام" واللذان أخذا مكانا بالقرب:

- الحمد لله أن عرفتم حقيقته قبل أن يتم الزواج وإلا لكانت الأمور أصعب بكثير. ستجد الزوج المناسب في الوقت الموعود، لا داعي للقلق.

- أعلم هذا فأنا أقرب مثال، لقد وجدتك ووجدتني بعد طول صبر وأمل لا ينتهي بأني سأحظى بك يا "هيثم'.

- يا حبيبتي رأيت فيك كل ما أتمناه، وحظيت بقلب دافئ ممتلئ بشتى أنواع الحنان والرقة.

شعرت بالدماء في وجنتي، أظن أنهما احمرا خجلا، همساته تتم عن عشق تليد لي، على الرغم من أننا التقينا منذ عدة أشهر فقط، أصبح "هيثم" دنياي بكل ما فيها.

***

شهر مر على زواجي وأنا في البيت أستعد للذهاب للعمل، فأتلقى مكالمة من "كريم". سعدت جدا بمكالمته تلك ولكنه أخبرني أنه تلقى رسالة جديدة على هاتفه، من رقم مجهول، معلنة أنه تم اختياره ليكون لاعبا في الطبعة الجديدة من لعبة "أنين السعادة"! وسألني إن كنت تلقيت مثل هذه الرسالة. فنفيت الأمر وقبل أن أؤكد كان هاتفي يعلن عن وصول رسالة جديدة. فقمت بفتحها فإذا هي من رقم مجهول وتحظرني بما أخبرني به "كريم" فالأمر لم ينتهي بعد.

***

الفهرس

الفصل الأول..... ٥

الفصل الثاني..... ١٩

الفصل الثالث..... ٢٧

الفصل الرابع..... ٣٩

الفصل الخامس..... ٤٥

الفصل السادس..... ٥٥

الفصل السابع..... ٧١

الفصل الثامن..... ٨٣

الفصل التاسع..... ٩٥

الفصل العاشر..... ١٠٥

الفصل الحادي عشر..... ١١٨

الفصل الثاني عشر..... ١٣٥

الفصل الثالث عشر..... ١٥٤

الفصل الرابع عشر..... ١٦٧

النهاية..... ١٧٨

تمت بحمد الله